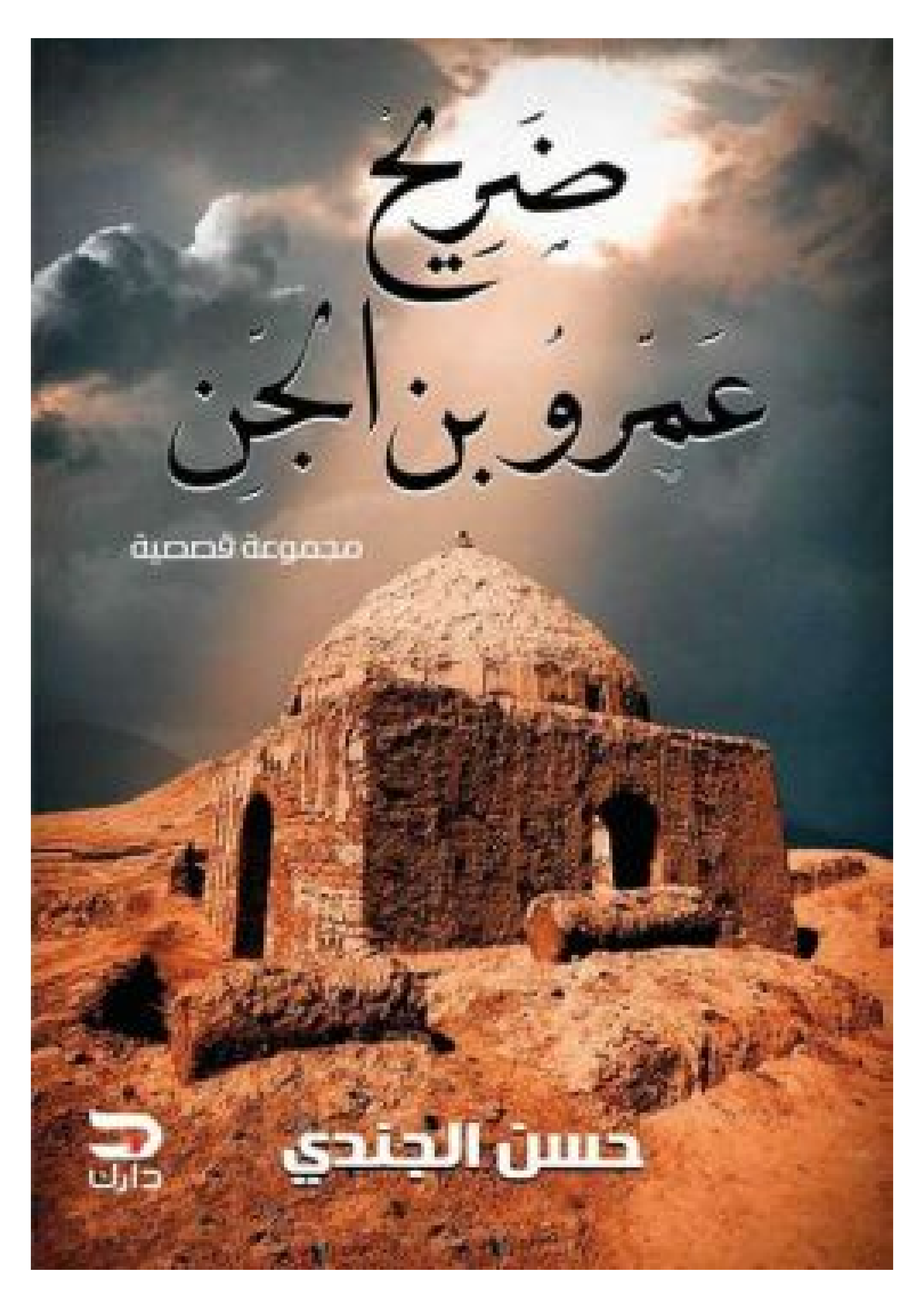

ضريح
عمرو بن الجن
مجموعة قصصية
حسن الجندي
دارك


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

ضريح
عمرو بن الجن



ضريح عمرو بن الجن

حسن الجندي

تصميم الغلاف: أسامة علام

تدقيق لغـوي- تنسيق داخلي:

www.sekoon.com

رقم الإيداع: 2017/25736

الترقيم الدولي: 978-977-6634-04-6

الطبعة الأولى: 2018

ضريح عمرو بن الجن

مجموعة قصصية

حسن الجندي



إهداء:

إلى من دفن في هذا الضريح .. لكم أتمنى أن تكون مجرد خيال..

المستشفى

ذلك المستشفى لا يتذكر ساكنو «حلوان» متى تم بناؤه، هذا إن جاز أن نُطلق عليه لفظة «مستشفى»، فما هو إلا مستوصف صغير يتكون من ثلاثة طوابق صغيرة الحجم، ظهر فجأة في ذلك الشارع الهادئ الصغير منذ سنوات قليلة، حتى تعوَّد السائرون في الشارع على وجوده، كأنه بُني منذ فجر التاريخ.

عليه لافتة صغيرة تحمل اسم «مستشفى الصفا»، وهو اسم منتشر بين المستشفيات ومحال البقالة والأجهزة الكهربائية وورش التصليح. باختصار، اسم «الصفا» يصلح لكل النشاطات، لذلك لا يتذكر أهل «حلوان» هذا الاسم ويطلقون عليه اسم «مستوصف دكتور طارق»، نسبة إلى «طارق» صاحب المستشفى، هذا الطبيب الشاب الذي ظهر فجأة كما ظهر المستشفى، عدا أن نجاحه فاق كل التخيلات. فبرغم أن تخصصه الطبي هو الجراحة العامة إلا أن أهل «حلوان» يعاملونه على أنه يحتوي على جميع أقسام الطب البشري؛ هل تشتكي من الزائدة الدودية؟ دكتور «طارق» جاهز للجراحة في التو واللحظة، هل تعاني مشاكل في النظر؟ اذهب لدكتور «طارق» فإنه خبير العيون الأول بمصر، هل يخالجك شعور بالاكتئاب ورغبة في الانتحار؟ إذن فدكتور «طارق» خير من يسمعك ويرشدك للصواب. الجميع يحبونه ويشكرون في أخلاقه وتدينه

وذكائـه، حتـى ولـو لم ينجـح في عـلاج أحـد المـرضى، فابتسـامته وصوتـه الهـادئ وطمأنتـه الدائمـة تكفـي وتفيـض ليتقاتـل عليـه المـرضى كل ليلـة مـن كل أنحـاء «حلـوان» ليدخلـوا غرفـة الكشـف الخاصـة بالجراحـة العامـة في مستشـفاه ويبتعـدوا عـن بقيـة الأطبـاء الآخريـن بتخصصاتهـم المختلفـة.

فـإذا دخلـت المستشـفى سـتجد أن الطابـق الأرضي (الأول) مـا هـو إلا غرفتـين، إحداهـما للطـوارئ والأخـرى للأشـعة. الطابـق الثـاني يتكـون مـن ممـر طويـل يمتلـئ بالغـرف الصغـيرة التـي من المفـترض أنهـا تحتوي عـلى أقسـام طبيـة مختلفـة يجلـس داخلهـا أطبـاء يدخنـون أو يقزقـزون اللـب، منتظريـن أن يمـنّ عليهـم أحـد المـرضى بالدخـول، بينـما يتجمـع المـرضى بالعشرات أمـام غرفـة الجراحـة العامـة ليقابلـوا «طـارق» الـذي يـأتي كل يـوم بعـد الخامسـة وينتهـي مـن كشـوف المـرضى عنـد منتصـف الليـل، ليصعـد مـع بضـع ممرضـات إلى الطابـق الثالـث كي يطمـئن عـلى المـرضى المقيمـين بعـد العمليـات الجراحيـة.

ألم أقـل لـك؟ الطابـق الثالـث مخصـص للعمليـات الجراحيـة ولإقامـة المـرضى بعـد تلـك العمليـات، لا تتوقـع أن تـرى طابقًـا يمتلـئ بالأطبـاء المهرولـين لغرفـة العمليـات بأيـادٍ ترتفـع لأعـلى، محاطـة بالقفـاز الطبـي والممرضـات يتبعنهـم لينقـذوا حيـاة مريـض جـاء منـذ لحظـات في حادثـة مفجعـة، الوضـع أبعـد مـا يكـون عـن المسلسـلات الطبيـة الأمريكيـة.

فالطابـق يتكـون مـن بـاب يغلـق ليـلًا ليعـزل الطابـق عـن بقيـة الطوابـق الأخـرى، ثـم صالـة مهملـة وحـمام صغـير ومطبـخ متهالـك يطل

على ممر. وعلى يمين الممر غرفة واحدة للعمليات وغرفتان لإقامة المرضى. وعلى يسار الممر غرفة واحدة لإقامة الممرضة المناوبة ليلًا.

في نهاية الممر نافذة مغلقة دائمًا في هذا الوقت من الشتاء القارس تطل على الشارع الهادئ. أما غرفة الجراحة فهي مجهزة لنوعيات محددة من العمليات، فلا تندهش إن سمعت صراخ امرأة تلد، أو رجل عجوز يصرخ في أقاربه بأنه لا يريد إجراء عملية البواسير الآن، أو فتاة تبكي وأمها تطالبها بالتماسك وهي تسير مترنحة للعمليات لتجري جراحة غضروف بسيطة.

لكن لا أحدك أن تشاهد عمليات معقدة في المخ أو الأعصاب أو القلب، فبرغم أن «طارق» يستعين ببعض الأطباء من خارج المستشفى لإجراء بعض الجراحات ويتولى هو الباقي، إلا أن غرفة العمليات غير مجهزة لكل شيء، دعك من أنه لا توجد غرفة إنعاش حقيقية للحالات الخطرة، إلا إذا اعتبرت تلك الغرفة الصغيرة الملحقة بغرفة العمليات - والتي تستخدم لإفاقة المرضى- غرفة إنعاش.

أما غرفتا إقامة المرضى فلا يحتويا إلا على فراشين صغيرين وأنبوبة أكسجين ودولاب وكومود صغير. وبالنسبة لأجهزة القياس الطبية فقد حشرت جميعًا بغرفة المناوبة الليلية للممرضة كي يستعين بها «طارق» عند مروره على المرضى يوميًا، وتعيدها الممرضة لغرفتها الصغيرة.

وهناك سر لهذا التصميم الغريب للثلاثة طوابق، فببساطة هذا المستشفى كان في الأصل بيتًا قديمًا من ثلاثة طوابق ورثه

«طـارق» عـن عمـه، مـع بضعـة تفاهـمات مـع البنـك وبضعـة ضمانـات استطاع هـذا الأخير أن يحصـل عـلى قـرض جيـد لتحويلـه لمستشـفى بعـد التراخيـص، وإن كان يجـب عليـك أن تندهـش مـن حصولـه عـلى التراخيـص بتلـك السـهولة، فهـو لم يفعـل الكثير سـوى أن هـدم بضعـة حوائـط وبنـى أخـرى ليحـول شـقق المنـزل إلى تصميمهـا الحـالي، حتـى أن مواسير الغـاز ظلـت عـلى حالهـا تتصـل بجميـع غـرف المستشـفى، وجميـع طوابقـه لم تطلهـا يـد التغيير سـوى دهانهـا باللـون الأبيـض كبقيـة المستشـفى، والمطابـخ والحمامـات بقيـت عـلى حالهـا بـكل طابـق بعـد الاسـتغناء عـن بعضهـا. باختصـار، أنـت في مـكان مـا بين المستشـفى والشـقة، لكـن بعـد كل هـذا مـا زال المـرضى يتوافـدون بأعدادهـم الغفيرة غير عابئين بقلـة المـوارد أو الـشروخ في بعـض الحوائـط.. المهـم هـو دكتـور «طـارق» نفسـه وليذهـب المستشـفى للجحيـم.

***

الليلـة بـاردة في الطابـق الثالـث ورذاذ المطـر يصطـدم كل ثانيـة بنوافـذ الطابـق المغلقـة ليعطـي صوتًـا محببًـا للبعـض ومخيفًـا للقليـل مـن النـاس. هـذه الـبرودة متوقعـة في شـهر ينايـر مـن كل عـام برغـم أنهـا لا تسـتمر كثيرًا بسـبب جـو «حلـوان» الدافـئ. أمـا المطـر فقـد كان غزيـرًا بحـق في تلـك الليلـة والفجـر يقـترب مؤذنًـا بيـوم جديـد عـلى ذلـك المستشـفى.

انفتـح بـاب الغرفـة الواقعـة عنـد نهايـة الممـر ليخـرج منهـا «مجـدي» المراهـق ذو السـتة عـشر عامًـا، يرتـدي ثـوب المستشـفى المفتـوح مـن

الخلف. نظر في الممر الخالي بإضاءته الضعيفة الآتية من مصباح متهالك معلق في السقف. سعل بضع مرات حتى كادت حافظة النقود التي يقبض عليها بيده اليمنى تسقط منه، لكنه تشبث بها بقوة وهو يغلق الباب من خلفه.

شعر ببرودة في رأسه فرفع يده الحرة يمررها على شعره البني، ليدرك أن شعر رأسه واقف كشعر الرسوم الكرتونية عندما تصعق بالكهرباء، برغم أنه في ذلك الحين أقرب بالفعل للشخصيات الكاريكاتيرية، إلا أن «مجدي» يمتلك وجهًا وسيمًا يحسده عليه أصدقاؤه؛ عين زرقاء وملامح دقيقة ببشرة بيضاء كأنما لم تر الشمس قط، لكن جسده القصير قليلًا هو ما جعله يسير بحرج دائمًا، يتلفت حوله لا إراديًا، متوقعًا أن يسخر منه المارة، هذا هو السبب الذي تضخم في عقله ليمنعه من ممارسة حياته الطبيعية كبقية أقرانه.

يمازحه بعض زملاء دراسته بنعته بالقصير، وهم لا يعلمون أن تلك هي نقطة ضعفه الوحيدة التي تؤلمه، ولا يمتلك أمامهم سوى الابتسام وإطلاق الضحكات العصبية التي لا معنى لها، كي يداري شعوره الداخلي الحارق.

سار ببطء ليليّن قدميه، هذه هي المرة الأولى التي يسير فيها دون مساعدة بعد إجرائه جراحة بسيطة في ظهره لتقويم الفقرات منذ عشرة أيام. طلب منه دكتور «طارق» أول أمس أن يسير قليلًا في الممر بدلًا من الذهاب للحمام بمساعدة والده نهارًا لكنه تكاسل.

الليلة شعر بأهمية السير وحيدًا لسبب لا يدريه، أو ربما ليفكر قليلًا في مأساته الثانية بعد قصره.

فتح حافظة نقوده وظهره يستند لحائط الممر، ثم أخرج منها بضع صور شخصية لفتاة في نفس عمره تبتسم وهي تمرر يدها بين خصلات شعرها المصبوغ وتغمز بإحدى عينيها.

انفتح باب غرفة المرضى الثانية وخرج منها رجل عجوز أشيب الشعر يمسك بيده سيجارة غير مشتعلة وهو ينظر حوله، حتى وقعت عينه على «مجدي» الذي ارتبك ووقعت الصور والحافظة من يده على الأرض، فحاول أن يلتقطها لكنه تألم من ظهره.

قطع العجوز بخطوتين المسافة بينه وبين «مجدي» وجثا على الأرض يلتقط الصور والحافظة الجلدية وهو يقول مبتسمًا:

- لا تثن ظهرك فتضر بالعملية، ألست أنت المريض المقيم في تلك الغرفة؟

ناوله العجوز الحافظة ونظر بطرف عينيه لغرفة «مجدي» الذي هز رأسه إيجابًا وهو يغلق جلباب المستشفى من الخلف لا إراديًا. كاد العجوز يناوله الصور إلا أنه تفحصها بعينيه قليلًا حتى قال:

- كأني رأيت تلك الفتاة من قبل! وجهها مألوف.

تنفس «مجدي» بقلق والتصق بالحائط أكثر، فابتسم العجوز وهو يناوله الصور ويقول:

- لا تخف، لست والدها ولا تمت لي بصلة قرابة، لكنني رأيتها من قبل. اسمي «حسن»، جراحة بواسير.

أخذ منه الصور وتنفس الصعداء وهو يقول:

- هل هناك تخصص طبي لجراحة البواسير؟

- أنا المريض المقيم في الغرفة المجاورة لك، أجريت عملية البواسير منذ ثلاثة أيام.

أنهى عبارته ومد يده التي تحمل السيجارة ليصافح «مجدي» الذي قال:

- أنا «مجدي»، قمت بجراحة بسيطة في الفقرات.

هز الاثنان رأسيهما بابتسامة بعدما انتهت المصافحة ثم نظر «مجدي» حوله كأنه يتأمل الممر الذي يقفان فيه. في الواقع لم يتعود هذا الأخير على فتح حوارات مع الغرباء، ناهيك عن عدم قدرته على تكملة أي حوار مع معارفه. حاول أن يلتقط بطرف عينيه تفاصيل هذا العجوز ذي العين البارزة والبيجامة المخططة بالطول والملامح التي تشي بتخطيه الستين بقليل. وضع «حسن» السيجارة في فمه ولم يشعلها فقال «مجدي» محرجًا:

- أعتقد أن التدخين ممنوع في المستشفيات.

ندم بعدما قال عبارته، قائلًا في نفسه إن هذه ليست الطريقة المثلى لفتح حوار. لكن «حسن» ابتسم بطريقة أبوية وقال وهو يبعد السيجارة من فمه:

- أنا لا أدخن فقد أقلعت منذ شهر تقريبًا، أحمل فقط تلك السيجارة ولا أشعلها.

- وما فائدتها؟

- لا أعرف، رأيتها في مسلسل لحسين فهمي فأعجبتني. الحقيقة أنني أقلعت عن التدخين بسهولة ولا أشتاق له الآن، لكن حمل تلك السيجارة يشعرني بالتميز أمام الجميع.

سمع «مجدي» صوت شخص يئن بصوت خافت لكنه فشل في تحديد اتجاه الصوت. حرك رأسه لا إراديًا في كل الاتجاهات ليلتقط الصوت الذي اختفى.

- هل سمعت هذا الصوت؟

قالها «مجدي» منصتًا، لكن «حسن» رد عليه بسرعة كأنما ينتظر هذا السؤال:

- لا تنسى أننا في مستشفى، هل توقعت سماع أصوات موسيقى؟!

- لكننا قرب الفجر! والصوت يأتي من هذا الطابق.

- بمناسبة الفجر.. هل توضأت لنصلي الفجر؟

قال «حسن» عبارته وهو يبتسم، بينما تسمر «مجدي» للحظة قبل أن يقول:

- أنا مسيحي.

ضحك «حسن» بصوت مجلجل وهو يشير لإحدى يديّ «مجدي» ويقول:

- لاحظت الصليب منذ البداية. لا تقلق، أنا أمازحك لأخرجك من حالة القلق التي تغرق نفسك فيها.

ابتسم «مجدي» لا إراديًا، وشعور بالراحة يغزو خلايا جسده بعد ضحكات «حسن». أخبر نفسه بأن هذا العجوز استطاع أن يكسر قلقه ويشعره بالاطمئنان بعد تبادل حديث لم يتخط دقيقة واحدة.

فجأة عاد صوت الأنين، لكن هذه المرة كان أعلى قليلًا وأقصر من المرة السابقة، تبعه صوت حشرجة يأتي من حنجرة منهكة. استطاع «مجدي» هذه المرة أن يحدد مصدر الصوت، فقد كان يأتي من ناحية الباب الذي يغلق الطابق ويفضي إلى السلم.

- التصوير الفوتوغرافي اختلف هذه الأيام.

قال «حسن» تلك العبارة فانتبه له «مجدي» بوجه متسائل عن معنى هذا السؤال. أشار «حسن» إلى الصور الشخصية الصغيرة التي ما زال يقبض عليها «مجدي» وقال:

- صور هذه الفتاة غريبة، هل أصبحت إستوديوهات التصوير تعتمد على نظام السيلفي؟

- سيلفي؟

- أنا عجوز يا بني لكني ما زلت أعرف القليل من جيلكم.

رفع «مجدي» الصور لأعلى ينظر فيها؛ الفتاة في الصور الفوتوغرافية بالفعل تستخدم هاتفها المحمول أو كاميرا في تصوير نفسها بيدها اليمنى في أغلب الصور. ابتسم «مجدي» بحرج وقال:

- لا أعلم ما السبب الذي يجبرني على إخبارك بالحقيقة لكني سأقول كل شيء.

تنفس «مجدي» بصوت مسموع، وعيناه لم تبرحا الصور، وأكمل حديثه بصوت أكثر عمقًا:

- منذ عام ذهبت لإستوديو تصوير بشارع منصور، وأنا أحمل على هاتفي صور هذه الفتاة. طلبت منهم طبعها في حجم صغير كي يمكنني حملها معي بحافظة نقودي لأي مكان؛ يمكنك أن تتخيل نظرات الشك التي رمقني بها صاحب الإستوديو، حتى أنني أخبرته بأنها صور شقيقتي الصغرى، وتصريحي هذا ما أكد له شكوكه أنني أكذب. لكنهم طبعوا الصور ومن هذا الوقت لم يرها أحد سواي.

- ما اسمها؟

- «ماري».

- اسم جميل.. منتشر بين مسيحيي مصر.

رفع «مجدي» عينيه من على الصور ونظر لحسن قائلاً:

- ليس في انتشار اسم «محمد» بين المسلمين.

- كلامك صحيح. جميلة «ماري»، هل تحبها؟

عاد «مجدي» لينظر إلى الصور ويقول:

- أعشقها منذ وعيت على الدنيا، فهي تسكن بالعمارة المجاورة لي، أراها في كنيستي ومدرستي وشارعي. كل ليلة منذ طفولتي لا أنام قبل أن أهيم في خيالات تخصها، أحلام تمتلئ باللقاءات الرومانسية

والسائر حول العالم، حتى أنني أحميها من الأشرار في خيالاتي فلا يقدر أي كلب أن يقترب منها قبل أن يتلقى علقة موت مني. فأنا مقاتل محترف بخيالي لا يجرؤ أي شخص على العبث معي.

- هل تبادلك كل هذا الحب؟

لم يرفع «مجدي» عينيه عن الصور وهو يقول بابتسامة مريرة:

- هي ملكي في أحلامي، أما في الواقع فأطول حوار خضته معها كان للسؤال عن صحتها أو عن موعد الصلاة في الكنيسة. كيف سأعترف لها بحبي وأنا غير قادر على تثبيت عينيّ في عينها لثانية واحدة؟ طوال السنوات السابقة أراقبها في صمت بكل مكان نلتقي فيه، وإن جاءت الصدفة ونظرت هي لي أبعد عينيّ عنها بسرعة البرق، حتى أصبحت خبيرًا في التظاهر أمامها بأنني لا أهتم بها. لكم تمنيت أن تعرف بمرضي وتزورني في المستشفى، أصدقاؤنا المشتركون في المدرسة يعلمون بالعملية الجراحية وربما أخبروها، لكنها لم تكن لتهتم بـ....

قطع «مجدي» عبارته وملامحه تتغير من الابتسامة الممتزجة بألم إلى ملامح الدهشة وهو يقول:

- هذه أول مرة أبوح فيها بما يدور في نفسي لأحد، لم أحدِّث نفسي حتى بصوتٍ عال.. ما الذي تغير فيّ؟

أنهى عبارته ونظر لحسن فوجد ملامح هذا الأخير متأثرة بشكل كبير بكلماته، حتى أنه لاحظ أن عينيه تلمعان بدموع مسجونة فيهما، وكأنه يقاوم كي لا يعطيهما الحرية.

- أرى أن كلامي قد أثر فيك.

ابتسم «حسن» فهربت دمعة من عينيه مسحها بيده وهو يقول:

- لو كنت في سن والدك لأخبرتك أن تترك هذه التفاهات وتلتفت لمدرستك ولمستقبلك، لكن بما أنني في سن جدك فكان عليّ إخبارك بأن تعترف لها بحبك، فلا وقت لتضيعه دونها. لكم أتمنى الآن لو كانت لنصيحتي ذات فائدة.

- لا فائدة.. إن اعترفت لها سترفضني بأدب، ما الذي سيجذبها لشخص تافه مثلي؟ بالإضافة إلى أن والدي لو علم بذلك لذبحني في الحال وأخذ يشكو بعدها من ولده العبيط الذي خيب أمله.

لا يعرف «مجدي» السبب الذي دفعه للنظر للنافذة عند نهاية الممر لكنه فعل. خُيّل إليه أنه يرى شيئًا ما وسط رذاذ المطر، شيء خلف النافذة في حجم وجه الإنسان. سمع صوت «حسن» يقول:

- بمناسبة والدك.. لا أرى أحد من أهلك يقيم معك في الغرفة ليلًا؟

لم يبعد عينيه عن النافذة وهو يجيب:

- والدي يعمل في مطبعة ليلًا، لكنه يأتيني من طلوع الشمس حتى غروبها.

تحرك «مجدي» بخطوات ثقيلة ناحية النافذة ليتبين هذا الشيء من خلف زجاج النافذة، و«حسن» يقول من خلفه:

- ووالدتك؟

- ماتت منذ خمس سنوات.

قالها «مجدي» وقد اقترب من النافذة أكثر، وملامح هذا الشيء تضبح أكثر وضوحًا. وجه شفاف لامرأة وسط رذاذ المطر تنظر من خلف النافذة لـ«مجدي» وتبتسم. توقف «مجدي» فجأة وفكه السفلي يسقط لا إراديًا، وعيناه تجحظان. رفع يده يشير للوجه ويقول بصعوبة:

- أمي!!

شعر بيد توضع على كتفه، فنظر لحسن الذي ربّت على كتفه وهو يقول بحزن:

- رحمها الله.

ظلت يد «مجدي» مرفوعة باتجاه النافذة وهو يتبادل النظر بين «حسن وبين وجه أمه ويقول:

- هل ترى ما أراه؟ هذه هي أمي.. أمي.

- اهدأ يا «مجدي»، لا تفزع هكذا.

اختفى الوجه وسط المطر ويد «مجدي» ترتعش وهو ينزلها، ويتأمل شخصًا يأتي من خلف «حسن». عند نهاية الطابق ظلام تام بسبب مصباح السقف المغلق عند باب الطابق، من وسط هذا الظلام أتت فتاة في العشرين من عمرها تغطي شعرها بحجاب غير ملفوف حول رأسها، كأنها فكّته لتوها. عندما دخلت الفتاة الممر

تعرّف عليها «مجدي»، فهي «صفاء» ممرضة المناوبة الليلة في هذا الطابق. نظر لها «حسن» بحزن وهي تسير ناحيتهما وفي عينيها تتكاثر العبرات ويدها ترتجف. قال «مجدي» بحروف مرتجفة:

- ما بك يا «صفاء»؟

توقفت «صفاء» ونظرت لحسن ثم قالت:

- ألم يفهم بعد؟

أرخى «حسن» قسمات وجهه وهو ينظر للأرض، و«مجدي» يمسك بكتفه ويقول:

- ما الذي لم أفهمه بعد؟ هل حدث شيء؟

قطع «مجدي» عبارته والكهرباء تُقطع فجأة عن الطابق وأصوات كثيرة تأتي من نهاية الطابق عند الباب، ميز منها صوتًا يصرخ قائلًا:

- بمجرد دخولنا افتحوا النوافذ ببطء وتنفسوا منها قدر ما استطعتم.

سمع «مجدي» صوت باب الطابق يفتح ببطء وشخص يحمل كشاف إضاءة يدخل وهو يحرك الكشاف يمينًا ويسارًا، حتى اصطدمت قدماه بشيء. وجّه الكشاف ناحية الأرض فوجدها جثة متكومة لفتاة تغطي رأسها بحجاب مفتوح. لم يكن حامل الكشاف إلا «طارق» نفسه الذي جثا على ركبتيه وخلفه يدخل

أربعة آخرين يحملون كشافات إضاءة أخرى، أما الجثة الراقدة على الأرض فكانت لـ«صفاء».

وقعت حافظة النقود من يد «مجدي» وهو ينظر لجثة «صفاء» التي يحاول «طارق» إسعافها بلا جدوى، و«صفاء» الواقفة أمامه في الممر والتي هطلت الدموع من عينيها وهي تقول:

- حاولت فتح الباب لكني فشلت.

- أنتِ من كنت أسمع أنينها منذ قليل؟

قالها «مجدي» غير مصدق فردت هي:

- لم أكن قد مت بعد.

بدا أن «طارق» فشل في إسعاف جثة «صفاء» فأراحها أرضًا وهو يضع كُم قميصه على أنفه، ويدخل الممر حاملًا الكشاف، والبقية يتبعونه وهو يقول:

- افتحوا النافذة ببطء كما أخبرتكم.

جرى اثنان في الممر وهما يمران بجانب «حسن» و«صفاء» و«مجدي» دون أن يلاحظوهم، و«طارق» يفتح غرفة «حسن» ويدخلها. سار «مجدي» مشدوهًا حتى وصل لباب الغرفة المفتوح وهو يشاهد «حسن» راقدًا على الفراش ميتًا، و«طارق» يفحصه. نظر «مجدي» لحسن الواقف في الممر وقال وهو يرتعش:

- نحن أموات.

رد عليه «حسن» بنبرات حزينة:

- كنت أحاول تهيئتك قبل وصول النجدة.

- وكيف متنا؟

- مواسير الغاز الطبيعي القديمة المعلقة في غرفنا بدأت بالتسريب ونحن نيام.

خرج «طارق» من الغرفة وسار في الممر لكنه توقف عند حافظة النقود التي سقطت من يد «مجدي» ونظر لها لثوانٍ، قبل أن يكمل سيره ويفتح غرفة «مجدي» وبقية حاملي الكشافات يتبعونه.

خطا «مجدي» بتثاقل حتى وصل لباب غرفته وهو يقول شاردًا:

- لهذا رأيت أمي تنظر لي مبتسمة من خلف الزجاج؛ لأنني ذهبت لعالمها.

وقف ونظر داخل غرفته وهو يرى جثته ترقد على الفراش، و«طارق» يضع الكشاف جانبًا محاولًا إسعاف «مجدي» وهو يصرخ في من معه أن يفتحوا نافذة الغرفة التي تطل على الشارع. توقف «طارق» وهو يعلن موت الجميع لمن معه وهم ينطقون الشهادة بحزن. جلس «طارق» على طرف الفراش وهو يصرخ فيمن معه بأنهم كان عليهم دخول الطابق فور اشتمام رائحة الغاز لا أن يبلغوه بأن يأتي فقط للمستشفى.

ما زال «مجدي» ينظر للحوار الدائر في غرفته وهو يلقي نظرة على جثته على الفراش ويقول:

- لكنني لم أحقق خيالاتي وأحلامي!

جاءه صوت «حسن» من خلفه يقول:

- آسف يا بني.. ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

نظر «مجدي» للأرض وهو يقول:

- حتى لو كنتُ حيًا.. لم أكن سأحقق أحلامي.

مرت لحظات وهو يشاهد «طارق» يرتكن برأسه على كفيه، حتى سمع «حسن» يقول:

- تذكرت أين رأيت تلك الفتاة التي في الصور.. «ماري».

نظر له «مجدي» فأكمل «حسن»:

- منذ خضوعك للعملية الجراحية من أيام وأنا أقف عند نافذة الممر من الصباح، كل يوم أرى تلك الفتاة تأتي وحيدة لتقف بجانب المستشفى بعد الساعة الثالثة عصرًا بملابس المدرسة، تنظر لنافذة غرفتك لساعتين، تبكي في بعض الأحيان، وإذا فتحت نافذة غرفتك ونهضت ابتسمت.

نظر «مجدي» لحسن وعيناه تتسعان، فأكمل هذا الأخير:

- وفي الساعة السابعة تعود بملابس أخرى لتقف ساعتين في نفس المكان. يبدو أنك كنت غبيًا في حياتك يا بني، الفتاة تحبك وتنتظرك.

نظر «مجدي» بحسرة لنافذة الممر المفتوحة والتي تدخل منها بعض زخات المطر، ثم نظر لجثته داخل الغرفة، وأغمض عينيه حزينًا.

***

فتح «مجدي» عينيه بصعوبة شاعرًا بألم في صدره وإحساس بالقيء يحتل معدته. وجد نفسه على فراشه بالمستشفى و«طارق» يجلس بجانبه، وحوله بضعة رجال يحملون الكشافات. صرخ الجميع مكبرين وهم يشاهدون «مجدي» يستيقظ بعدما اعتقد الجميع موته. نهض «طارق» مفزوعًا وهو يفحص «مجدي» الذي قال بصوت متحشرج وهو يشير خارج الغرفة:

- حافظة نقودي بالخارج وبجانبها بضع صور، أحضروها.

جرى أحد الواقفين ليغيب بضع ثوانٍ في الممر ثم يعود للغرفة حاملًا الحافظة والصور. نظر «طارق» لـ«مجدي» قائلًا:

- كيف وصلت حافظتك للخارج؟!

كان «مجدي» يحتاج للتأكد أنه لم يكن يحلم. لم يجب عن سؤال «طارق»، لكنه ابتسم براحة وهو يريح رأسه على الوسادة ويفكر في مستقبله مع «ماري».

تمت

***

خالتي لا تكتب قصص الرعب

انتهيت من تناول الغداء مع خالتي وأبنائها، وشعور عام بالرضا يغزو خلايا مخي. من هذا الذي لا يشعر بالرضا بعد تناول محشي الكرنب واللحم؟! محشي الكرنب يسمو بروحك ليساعدك على إدراك ذاتك مرة أخرى. بعد أكله تصاب بصمت حكيم يحملك على تأمل الموجودات في شقة خالتي بنظرة أكثر روحانية، فتتساءل لأول مرة: هل تلك الكنبة الإسطنبولي كانت موجودة منذ أيام؟ أم سنوات؟ أم هي قديمة أزلية ظهرت قبل كل شيء؟

النتيجة القديمة التي لا تحمل أوراقًا، والمعلقة على الحائط، تلاحظ لأول مرة أنها تحمل تاريخ عام «1979»! نتيجة حائط معلقة منذ 37 عامًا، ولم ألاحظها إلا بعد محشي الكرنب! الكلمات المكتوبة على الحائط المواجه لي بقلم جاف، والتي كتبها المعتوه ابن خالتي في طفولته على الأغلب بخط منمق. تقول الكلمات «برة.. واللي برة مين؟ دا احنا معلمين. لما الباب يخبط نعرف برة مين».

ابن خالتي يتحدث عن الاستبصار والقوى الخارقة على الأرجح. أعتقد أنه كتبها بعد أكلة محشي أثرت في وعيه فدفعته لكتابة هذه التدوينة وهو يمسح المخاط الذي يسيل من أنفه، ليترك للأجيال التي تليه عصارة إبداعه اللحظي.

جاء هاتف من المطبخ يقول:

- «حد عايز شاي؟»

إنها خالتي التي ما زالت تسأل هذا السؤال منذ يوم مولدي بعد كل غداء. لم يجبها أحدنا، فأنا وابن خالتي نسرح في عالم التأملات، وبنات خالتي تجلس كل واحدة منهن نصف نائمة. أما زوج خالتي فقد أتى شخيره منذ دقائق طويلة. وككل مرة جاءت خالتي من المطبخ تحمل صينية بها أكواب الشاي على عددنا برغم أننا لم نطلبه ولا مرة. أعطت كل واحد منا كوبه وأيقظت زوجها الذي تمتم بكلمات سحرية غير مفهومة واعتدل في جلسته ممسكًا بالكوب ثم نام مرة أخرى وهو يريح كوب الشاي على كرشه.

أما أنا فارتشفت من الشاي القليل، بعدها بثوان شعرت باحتياجي للبكاء من فرط الرضا الذي غمر روحي في تلك اللحظة. شاي بعد محشي الكرنب هو السعادة التي بحث عنها الفلاسفة.

- «خالتي؟»

قلتها وأنا أحرك رشفة الشاي الثانية بفمي لأستمتع بها قبل بلعها.

- «نعم يا روح خالتك».

- «فاكرة لما كنتي بتحكيلنا زمان عن أبو رجل مسلوخة والغولة؟».

ابتسمت خالتي بطرف شفتيها وهي تتذكر. أنا أيضًا أتذكر جيدًا تلك الليالي التي دأبت فيها على جمع كل أطفال العائلة [illegible]سنا

أمامها على مقاعد الصالون المذهب في منزل جدي، لتحكي لنا عن العفاريت والجان. عند بداية إدراكي للموجودات كانت تمتلك قصصًا لا تنتهي عن كل ما يرعب الأطفال والكبار على ما أعتقد. بعد ما كبرت قليلًا استطعت أن أدرك أنها استخدمت قصصها المرعبة كي تحذرنا من بضعة أشياء لتحسّن من سلوكنا الطفولي، أي أنها قصص تربوية مغلفة بإطار من الخوف والترقب لتصل لنا رسائل بسيطة. تحكي لنا عن الغولة التي تتشكل في صورة امرأة قبيحة تخطف الفتى الأهطل الذي يلعب في جوال الدقيق على سطح منزله. ثم تتبع خالتي قصتها بنظرة مخيفة لابنها الأهطل الذي تتسع عيناه خوفًا وهو يتذكر أنه قفز داخل جوال الدقيق أمس واختبأ به لساعات حتى غلبه النوم، ليبحث عنه الجميع بلا جدوى حتى ظهر مرة أخرى واللون الأبيض يغطيه، حتى أن خالتي وهي تضربه كان يطير الدقيق من عليه ليصنع سحابةً تعمي العيون. عندما تختفي السحابة تجد أنها تضرب طفلًا آخر غير الأهطل.

وهناك حكاية أخرى عن «الشمامة» التي لم نكن نعتبر اسمها سبّة تدل على إدمان الكوكايين، لكن اسمها هذا دبّ الرعب في قلوبنا، فهي تأتي لمن ينام بلا أن يغسل يديه وقدميه وأسنانه ورأسه وقفاه وكل شيء، حتى أنها تأتي في بعض الأحيان لمن لم يغسل الغسيل.

كانت خبيرة في قصص الرعب حتى كبر الأطفال وملّوا من الحكايات وتناست هي قدرتها على السرد، الجميع تناسوا إلا أنا.

تحولت مع الوقت لهاوٍ يحب كتابة قصص الرعب ونشرها، سنوات طويلة أكتب الرعب ولم أفكر في إعادة سماع أي قصة من قصص خالتي، أفتقد متعة الجلوس أمامها مترقبًا صوتها الجاد وتعبيرات وجهها الذي يجسد ما ترويه.

- «ما تحكي لنا يا خالتي عن قصة تخوف زي زمان، وكلنا هانسمعها».

قلتها مبتسمًا والإثارة تقتلني. نظر لي ابن خالتي الأهطل بطرف عينيه بقرف، بينما خالتي تقول:

- «يا ابني دي كانت قصص بألفها عليكوا وأنا بحكيها، مش فاكرة منها حاجة».

- «ولا أي حاجة؟».

- «مش فاكرة اللي كنت بحكيه، لكن فاكرة اللي محكتهوش لسة».

- «نعم!؟ هو انتي محكتيش إيه؟».

- «القصص الحقيقية اللي حصلت لي».

- «الصلاة على النبي.. احكي يا غالية».

قلتها بفرحة وكوب الشاي يرتعش بيدي فتطايرت منه قطرة على ملابسي. صرخت «سلوى» ابنة خالتي قائلة:

- «محدش يحكي حاجة تخوف».

تبعها الأهطل قائلًا:

- «خشوا في الصالون ولّا في أي حتة بعيد عن هنا».

نظرت لخالتي متسائلًا، فقالت:

- «تحب تسمع حاجة حقيقية؟».

- «آه».

- «طب اسبقني على الصالون وأنا هاحصلك».

رشفت الشاي الساخن بسرعة كالمجنون وجريت على الصالون، بينما خالتي ذهبت لغرفة النوم وأنا أسمع أصوات دولاب الملابس وهي تعبث به.

جلست على أحد المقاعد متأهبًا حتى أتت خالتي بعد دقائق تحمل كيسًا بلاستيكيًا أسود اللون، وضعته بجانبها وهي تجلس على الأريكة المواجهة لي وتنظر إلى الأرض مفكرة، ثم تنظر لي وتعبيرات وجهها تتغير كأنها تحن لشيء قديم. ابتسمت بطرف فمها وقالت:

- «الحكاية بدأت سنة 79 لما خلفت ميادة».

***

ملحوظة: سأروي الجزء الذي روته لي خالتي بأسلوبي.

بعد ولادة «ميادة» بأيام، أصيبت بمرض «الصفراء» كما نطلق عليه في لغتنا الشعبية، لا يهمنا هنا المصطلحات الطبية. نصحتها بعض نساء العائلة اللواتي تخطين الثمانين، بالانتظار قليلًا حتى تختفي أعراض المرض تلقائيًا بعد أيام. لكن الأعراض لم تختف من تلقاء نفسها، بل زادت، لذا لا وقت لسماع نصائح الحكماء العجائز

المخرفين الذين اعتادوا على قول «اسأل مجرب ولا تسأل طبيبًا». على الأرجح هذا المثل قتل الملايين من الأطفال منذ القدم، لذلك عقدت خالتي عزمها على إقناع زوجها الذي لان بعد فترة، لأنه كان من النوع المقتنع بأن الأطفال تُشفى من نفسها تلقائيًا فهذا شيء معروف له، أما مسائل الأطباء والمستشفيات فهي مجرد «دلع» حسب تعبيره في ذلك الوقت.

ذهبوا ليلًا لمستشفى «الساحل التعليمي» بشبرا، وهناك قرر طبيب الاستقبال حجز «ميادة» لبضعة ليالٍ كي تتلق العلاج.

سمح المستشفى لخالتي أن تبيت مع «ميادة» في عنابر الأطفال. في تلك الفترة تكونت عنابر الأطفال من بضع غرف متجاورة في الطابق الثالث، كل غرفة بها بضعة أسرّة متجاورة ولم يكن يتم التفريق بين عمر الأطفال الذين يتراصون على السرائر، من عمر شهور إلى عمر اثني عشر عامًا، لكن الغرفة التي وضعوا فيها «ميادة» كانت أسرّتها خاليةً من الأطفال، لذلك جلست خالتي بجانب الفراش الذي استلقت عليه «ميادة» وهي تنظر للغرفة الخالية من المرضى بقلق، لقد غادر زوجها من قليل بسبب عمله الذي يبدأ قبل منتصف الليل بقليل.

دخل طبيب تصاحبه ممرضة فحص «ميادة»، وطلب من الممرضة سحب عينة دم منها ثم إعطائها دواء مرة كل ثمان ساعات. رحل ورحلت الممرضة خلفه وبعد قليل جاءت ممرضة أخرى سحبت عينة دماء و «ميادة» تصرخ باكية، بينما خالتي تحاول تهدئتها.

أعطتها الممرضة دواءً ثم رحلت وهي تخبر خالتي بأن طبيب النبطشية الليلية سيمر على العنابر ليطمئن عليها. غادرت الممرضة بعدما أغلقت مصابيح الغرفة ليأتي ضوء من الممر خارج الغرفة بجانب ضوء القمر ليضيئا الغرفة بشكل جيد مريح للعينين.

راحت «ميادة» في النوم بعد ساعة، فوضعتها خالتي في الفراش وجلست على مقعد بجانب الفراش تكافح النوم حتى غلبها النعاس. لا تتذكر كم مر عليها وهي نائمة، لكنها استيقظت فجأة، نظرت حولها للغرفة الخالية ثم لابنتها النائمة، شعرت بالخوف بلا سبب، كأن هناك شيئًا ما أيقظها.

ما هذه الرائحة؟ دخلت أنفها رائحة غريبة لم تتعرف عليها. مرت بضع لحظات حتى تعرفت عليها، رائحة تقترب من رائحة عود الثقاب بعد انطفاء شعلته، كأنها رائحة احتراق خشبي.

فجأة فتحت «ميادة» عينيها كأنها فزعت، أخذت تحرك عينيها يمينًا ويسارًا بسرعة غريبة. توقفت عيناها باتجاه باب الغرفة المفتوح، نظرت خالتي هي الأخرى للباب مندهشة، لم تر شيئًا في البداية، لكن بعد ثوان دخل من الباب رجل طويل يحمل بيده اليمنى حقيبة جلدية صغيرة، لم تظهر ملامحه في البداية لأن الضوء يأتي من خلفه، كان صوته رخيمًا هادئًا وهو يلقي التحية على خالتي التي ردت عليه بشك.

- «أنا الدكتور حسام نصر الله، دكتور النبطشية».

قالها الرجل وهو يسير داخل الغرفة متجهًا إلى الفراش. نهضت خالتي من المقعد لتفسح له مجالًا ليقف بجانب الفراش، لكنها لاحظت أن عين «ميادة» تتجه ناحية الرجل وهو يسير، حدقتا عينيها تتابعانه بدقة. المفروض أن الأطفال في هذا العمر لا يرون أكثر من سنتيمترات، كيف تلاحظه وتتبعه بعينيها بهذه الطريقة؟!

ملامح الرجل بدأت تتضح لكنها لم تكتمل بعد. رفع يديه كأنه يداري الجزء الأيمن من وجهه. رائحة الشياط تتسلل لأنف خالتي أكثر مع اقترابه، لكنها تجاهلتها وهي ترى الرجل يجلس على المقعد ويفحص «ميادة» بطريقة غريبة، يحركها يمينًا ويسارًا ويقلبها وهو ينظر لها.

- «مالها بنتك؟».

قالها الرجل بصوته الهادئ، فردت خالتي بسرعة:

- «عندها الصفرا يا دكتور».

توقف الرجل عن فحص «ميادة»، وقال وهو ينظر للأرض:

- «بنتك كويسة، روّحي بيها البيت وعرّضيها للشمس شوية، والصفرا هاتروح».

حاولت خالتي التدقيق في ملامحه أكثر، لكنه أشاح بجانب وجهه الأيمن بعيدًا وهو يقول:

- «يلّا خديها وامشي زي ما قلت لك».

- «أمشي إزاي؟! دا الدكتور اللي شافها قبلك قال لازم تستنى».

صرخ الرجل ووجه ما زال موجهًا ناحية الأرض:

- «بقول لك خديها وامشي.. انتي مبتفهميش!».

- «انت بتكلمني كدا ليه؟ ومداري وشك عني ليه؟».

نهض الرجل وهو ينظر بوجهه ناحية خالتي. رأت لحظتها جانب وجهه الأيمن، كان جلده متآكلًا، تبرز عظام جمجمته منه، وأسنانه تظهر بلا جلد فمه كأنه يبتسم. تراجعت هي للوراء وهي تصرخ بينما الرجل يقول:

- «لما أقول لك تمشي يبقى تنفذي اللي بقول عليه».

أكملت خالتي صراخها والرجل يأخذ حقيبته ويسير مبتعدًا حتى خرج من الغرفة. نهضت هي من على الأرض وحملت «ميادة» وهي تجري بها حتى خرجت من الغرفة، لتجد ممرضة تجري عليها من آخر الرواق بينما بعض أهالي الأطفال يخرجون من الغرف متسائلين. صرخت خالتي في الممرضة تخبرها بأن رجلًا غريبًا دخل الغرفة وادّعى أنه طبيب. صممت الممرضة على أنه لا أطباء يمرون الآن، وحاولت تهدئتها. خرجت امرأة أخرى من غرفة بعيدة تصرخ وهي تحمل طفلًا وتقول إن هناك رجلًا غادر غرفتها الآن، وجهه مليء بالحروق. خرج وراءها اثنان آخران يحملان طفلين وهما يؤكدان ما قالت. صرخت خالتي وهي تجري باتجاه السلم ويتبعها الجميع حاملين أطفالهم حتى غادروا المستشفى.

أخذت خالتي «تاكسي» حتى شقتها وهي ترتجف وتقرأ القرآن.

اتصلت بزوجها في عمله لتخبره أنها عادت لمنزلها. في اليوم التالي حكت لزوجها عما حدث فأخذ يكيل الشتائم لها ولجنونها ولخيالها.

***

انتهت خالتي من الحكاية والذهول يرتسم على ملامحي.

- «هو الحكاية خلصت خلاص؟!».

قلت العبارة السابقة فابتسمت خالتي وهي تقول:

- «آة خلاص خلصت».

- «بس الحكاية كأنها من غير نهاية».

نهضت خالتي وهي تقول:

- «ما هي الحكايات الحقيقية ملهاش نهاية ولا تفسير».

تبعت عبارتها بأن أخذت الكيس الأسود الذي احتفظت به بجانبها وأخرجت منه جريدة صفراء اللون. ألقتها لي وهي تقول:

- «تالت يوم الحكاية دي.. جوزي جاب الجرنال دا. اقرأ الخبر المتعلم عليه يمكن تلاقي فيه نهاية للحكاية».

غادرت هي الغرفة وأنا أتأمل الجريدة ذات الورق المهترئ. طبّقت الجريدة على صفحة جزء من صفحة واحدة، فيه خبر صغير وُضعت حوله دائرة بقلم حبر. قرأت عنوان الخبر الذي يقول:

«حريق هائل بقسم الأطفال بمستشفى الساحل التعليمي.. العناية الإلهية تنقذ جميع المرضى».

تحت العنوان كُتب:

«وقعت بالأول من أمس حادثة مفجعة داخل مستشفى الساحل التعليمي، ماس كهربي صدر من لوحة الكهرباء بالطابق الثالث أشعل النار بقسم الأطفال، لكن عناية الله كانت حاضرةً، فقبل اشتعال الحريق بنصف ساعة ادّعت والدة أحد الأطفال رؤيتها رجل ينتحل صفة طبيب يسير بين غرف قسم الأطفال، وغادرت المستشفى وبقية أهالي الأطفال يتبعونها بعدما دبّ فيهم الخوف والبلبلة. فلم يبق بالقسم أي مرضى عندما اشتعل الحريق، ولم يُصب أحد بأذى إلا الطبيب النبطشي تلك الليلة د. حسام نصر الله، والذي راح ضحية الحريق تلك الليلة بعدما حاول المساعدة في إطفائه، لكنه مات بعدما اشتعلت به النار ولم يستطع الممرضين نجدته في الوقت المناسب».

توقفت عن القراءة وأنا أرفع عينيّ عن الجريدة، والأسئلة تعصف برأسي. هل ظهرت روح «حسام» لخالتي كي تحذرها من الحريق وتحثها على المغادرة؟ كيف هذا وهو لم يكن قد مات إلا بعد مغادرة خالتي المستشفى واشتعال الحريق؟

أغمضت عينيّ وأنا أبحث عن حلٍ لما حدث، وحتى الآن لم أجد.

تمت

***

نفير الحرب

شقيقي وعزيزي/ رؤوف محمد سعيد.

تحية طيبة وبعد..

أرسل لك أرق تحياتي من مصر، كما أبلغك سلام شقيقتينا «سامية» و«ليلى»، وأعرفك بأن شقيقنا الصغير «صادق» قد قرر التقدم للزواج من إحدى زميلاته في الجامعة. لا أعلم هل كبر «صادق» فجأة بعدما سافرت أنت لروسيا؟ أم أنني انشغلت عنه بعملي في هيئة الآثار المصرية؟ حتى فاجأني هو بأنه يبحث الآن عن حقه الإنساني في التكاثر كبقية البشر. هذا الجيل الجديد مختلف تمامًا عنا؛ فأنت صممت على الوصول لأعلى المراتب العلمية في الهندسة، وأنا أصريت على الوصول لدرجة الدكتوراة في علم الآثار وما بعدها من مراتب علمية، وها نحن إلى الآن لم نفكر جديًّا في الزواج، أما هو فبمجرد أن رأى بعض الشعر المتطاير في الهواء والقليل من مساحيق التجميل على وجه أنثوي، قرر أن يلبي نداء الطبيعة الحيواني ويبدأ بتكوين أسرته قبل أن يكوِّن عقله. إن أردت الحقيقة لا أعلم أي منا على صواب، هل جيله الجديد بأغانيه الغريبة هو الذي سيستحق أن يرث الأرض من بعدنا؟ أم جيلنا المكافح الهادئ الذي كان يحلم بأن يغير الكون ببطء؟ على كلٍ، لم أصارحه بتلك الخواطر واحتفظت بها لنفسي ولك.

أخبرته بالطبع أنني سأرسل خطابًا لك لأعرف رأيك، وإن كنت أتمنى أن توافق يا «رؤوف» على زواجه، فهو في النهاية شقيقنا الساذج الذي ربيناه منذ أن كان طفلًا حتى أصبح الآن ملبيًا لنداء الطبيعة. أعرف أنك لن تستطيع ترك بعثتك الآن والعودة لمصر لحضور الخطبة، لكنني سأضغط على أهل العروس حتى نكتفي بقراءة الفاتحة وارتداء دبل الخطوبة في حفل بسيط بمنزلهم ونؤجل الخطبة الرسمية وتقديم الشبكة لحين عودتك من الخارج في إجازتك القادمة. كل ما أريده منك أن ترسل خطابك القادم وهو يتضمن موافقتك وتهنئتك لصادق، لأنه فجأة أصبح يسمع أغاني «أم كلثوم» و«عبد الحليم» التي تتحدث عن الهجر والفراق بعدما أخبرته بأنني سأرسل لك لترد علينا بالموافقة أو الرفض. تلك الأغاني تصدح في جنبات الشقة ليل نهار، حتى كادت تفقدني أعصابي لدرجة تفكيري في أن أحطم رأس شقيقنا بمنفضة السجاجيد، لكنني تراجعت بعد تفكير، لذا أنتظر خطابك بسرعة.

نأتي الآن للحقيقة من إرسال خطابي لك، في كل الأحوال كنت سأكتب لك هذا الخطاب بعد أيام، لانشغالي الآن بمتابعة ومرافقة بعثة ألمانية جاءت إلى القاهرة منذ أسبوعين. رافقت البعثة لأسوان منذ عشرة أيام وكان من المفترض أن أعود معهم للقاهرة بعد ثلاثة أسابيع على الأقل، لكن حدث ما أجبرني على العودة اليوم بالتحديد، وهذا ما أردت أن أتحدث معك عنه في هذا الخطاب، ربما لأخرج ما يعتمر في ذهني أو لأسمع رأيك، لا أعلم، لكنني أجد

نفسي أكتب لك هذا الخطاب بعد منتصف الليل قبل أن أتحرك غدًا عائدًا لأسوان بعدما حدث اليوم.

أمس، وأنا في الفندق بأسوان وقبل الغداء مع أفراد البعثة، أبلغني موظف استقبال الفندق باتصالٍ من القاهرة، كان المتحدث هو الدكتور كمال عز العرب، صديقي وزميلي بهيئة الآثار المصرية، بعد القليل من السلام أخبرني بوجود عالم المصريات البريطاني الشاب جاريد فيرنون بالقاهرة هو وبعض البريطانيين الهواة. هذا الشاب المتعجرف المتهور عاد لمصر مرة ثانية. كثيرًا ما ألقى بالاستنتاجات السريعة الغبية على الحضارة المصرية القديمة، وهذه الاستنتاجات كثيرًا ما أعجبت أوربا التي ما زالت لا ترى في مصر سوى تاريخ خيالي قديم وحاضر متخلف يمثله بعض البدو الرحالة.

وهذه هي نظرة «جاريد» لنا كمصريين الآن، نظرة رأيتها في عينيه في لقائي الأول معه، كأنه يقول لنا أنتم متخلفون لا تستحقون تاريخ أجدادكم، ويا ليته اكتفى بهذا، إلا أنه دائمًا ما يعبث بتاريخنا المصري؛ فأوراقه البحثية التي ينشرها تمتلئ بالكلام عن الحياة الجنسية للمصريين القدماء وعاداتهم الغريبة التي استنتجها هو من بضعة أشياء غير ذات صلة، هذا غير كتبه التي ينشرها ببريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وتمتلئ بتلك الترهات وتحقق الكثير من المبيعات.

سألت «كمال» عن سبب زيارته، ومن هؤلاء الهواة الذين أحضرهم، فأخبرني بأنه لا يعلم سوى أنه أقنع إدارة المتحف المصري

بإخراج بعض القطع الأثرية لمقبرة توت عنخ آمون من المخازن لتصويرها وكتابة بعض المقالات البحثية عنها، والمرافقين له لا يعلم «كمال» عنهم إلا أنهم لهم علاقة بجهات إعلامية ربما كانت صحفية أو إذاعية أو نشر.

بعد الكثير من السباب الذي أطلقته على «جاريد» ومن معه ومن سهل له الوصول للمتحف وإقناع المسئولين، استفسرت من «كمال» عن موعد إخراج القطع الأثرية من المخزن وعرضها، فأخبرني بأنها غدًا - الحوار التليفوني كان أمس- هنا أخبرت «كمال» بأن يتواصل بسرعة مع كل من يستطيع ليضعوا اسمي في الوفد المصري الذي سيحضر تلك المقابلة في الغد باعتباري مفتش آثار. وعدني «كمال» بذلك وأخبرته أنا أنني سأغادر من أسوان في أقرب فرصة لأكون بالقاهرة غدًا، صباحًا على أكثر تقدير.

أغلقت خط الهاتف واعتذرت للبعثة بأنني سأتغيب اليوم وأعود بعد غد لظروف طارئة في القاهرة. حجزت القطار ووصلت القاهرة في الصباح كما توقعت. ذهبت لشقتنا لأرتاح قليلاً، هاتفت «كمال» فأخبرني أن «جاريد» ومن معه سيكونون في المتحف الساعة الواحدة ظهرًا، وأنني سأرافق اثنين من العلماء المصريين. قبل أن أغلق الهاتف مع «كمال» سألته هل علم بعد ما هي القطع التي يريد «جاريد» رؤيتها، فأخبرني أنه طلب رؤية خناجر الملك توت عنخ آمون والأبواق الخاصة به. هنا فهمت كل شيء، عرفت ما يدور بخلد «جاريد»، لذا قبل الموعد بساعة كاملة كنت في

المتحف، أعرف معظم من يشتغلون بالمتحف المصري بداية من عم «جميل» رئيس الأمن إلى مدير المتحف شخصيًا، والذي كان زميل دراسة مقربًا وصديقًا حميمًا ما زال يسأل عليّ بين الحين والآخر، لا يفرقنا سوى قلة الوقت في حياتنا الشخصية. بعد دخولي المتحف سلمت على عم «أمين» وجلست معه في غرفة الأمن لنشرب الشاي ونستعيد ذكريات حضوري للمتحف كل يوم أثناء تحضيري لرسالة الماجيستير ثم الدكتوراة، كما شكرني على ترشيحي له للعمل في المتحف منذ سنوات طويلة حتى استطاع الترقي إلى رئيس الأمن. استمرت جلستنا لنصف ساعة طلبت منه في نهايتها بضعة أشياء وقرر هو فعلها بصدر رحب. تركته لأبحث عن العلماء المصريين الذين سيرافقونني أمام المعتوه «جاريد»، وجدت الدكتور «سامح» ودكتور «عاطف»، تناقشنا في هدف تلك الزيارة وسببها ونحن في طريقنا للمخزن. كانا قد أخرجا القطع المطلوبة منذ ساعات من الصناديق المرقمة ووضعاها في المخزن حتى ننقلها قبل الموعد المحدد للمكتب الذي سيطلع فيه «جاريد» ومن معه عليها.

ساعدتهم في نقل القطع للمكتب وجلست بجانبهم أتأمل تلك العبقرية التي تركها لنا أجدادنا. أعلم يا «رؤوف» أنك لا تهتم في الغالب بالمصريات، لكن هذا لن يمنعك من الانبهار بما جلست أتأمله أنا، خناجر الملك توت عنخ آمون، كانا خنجرين أحدهما زُخرف مقبضه بالنقوش الذهبية وصُنع نصله من الذهب، والثاني له نقوش مشابهة للأول على المقبض، لكن نصل الخنجر الثاني،

كان من الحديد، نُقش على الخنجر عبارة ترجمتها هي «حديد من السماء»، لهذا يا «رؤوف» قلت لك إنني عرفت ما سبب زيارة المعتوه البريطاني؛ هذه العبارة هي أحد الأسباب، «حديد من السماء» أو «معدن من السماء». سيتكلم في الغالب عن أشياء خيالية بناء على تلك العبارة، لهذا حضرت اليوم لأحيل زيارته لجحيم، لن أتركه يشوه تاريخنا بسبب بعض الخيال العلمي الدائر برأسه.

بقية القطع هي أبواق الملك، وهي اثنان، بوق بطول 50 سنيمتر مصنوع من الفضة ومطلي بالذهب عند أطرافه، نهاية البوق هناك جلبة أسطوانية غُطيت بالذهب تشبه شكل بوق الجرامافون، عليها نقشت صورة للملك وأمامه تمثال للإله بتاح، وخلفها رسم غير واضح، هذا البوق رجح أنه بوق أو نفير الحرب الخاص بالملك.

أما البوق الثاني فصنع من النحاس بمواصفات قريبة من بوق الحرب، واحتمال أنه كان يستخدم للتشريفات العسكرية. أنا أعرف أيضًا لما طلب «جيرالد» أبواق الملك، للأسطورة التي أحاطتها عند الأثريين.

قبل أن تدق الساعة الواحدة بدقائق وجدنا عم «جميل» قد أتى ومعه «جيرالد» وثلاثة آخرين، كنت قد طلبت منه أن ينتظر «جيرالد» ومن معه ويحضرهم لهذا المكتب فور وصولهم. بمجرد أن وقعت عين المعتوه البريطاني عليّ حتى ظهر القرف على وجهه، فنحن نكره بعضنا بعد أن تطور النقاش بيننا آخر مرة ووصل إلى

السباب، وأنا لي باع طويل في السباب بالإنجليزية والفرنسية كما تعرف.

دخلوا المكتب وحدث تعارف سريع أكد شكوكي. من معه، مدير لدار نشر بريطانية وآخر صحفي لجريدة الجارديان ويرافقه مصور فوتوجرافي. وقفت أنا بعيدًا عنهم قليلًا وذراعي معقودة أمام صدري بتحدٍ وعلى وجهي علامات الترقب. أخرج المصور من حقيبة يحملها كاميرته وأخذ يثبت عليها الفلاش بينما «جيرالد» يمسك الخنجر ذا النصل الحديدي ويرفعه أمامهم وهو يشرح لمرافقيه قائلًا بإنجليزيته الأكسفوردية:

«هذا الخنجر وجده السيد «كارتر» ملفوفًا بلفائف كتانية على الفخذ الأيمن للملك، وهذا يدل على أهميته، فوضع التمائم والمجوهرات في اللفائف الكتانية حول المومياء هو الطقس الشائع وخاصة التمائم لحماية الملك في رحلته للعالم الآخر. أما وضع خنجر فهو يعني رمزًا هامًا لا يمكن إغفاله، هل قصدوا أن الخنجر سيحمي الملك ضد أعدائه في العالم الآخر؟ أم أن الملك قدّس هذا الخنجر بالذات؟ خاصة وأن الخنجر الآخر برغم أنه مصنوع من الذهب كان بعيدًا عن المومياء، أما هذا فصنع نصله من الحديد».

فكرت أنا ساعتها بأن كلامه للأسف يحمل بعض المنطقية، فجزء من علم الآثار يقوم على الأسئلة والاستنتاج لقلة الأدوات البحثية في هذا العلم. تململت في وقفتي وأنا أنتظره ليخطئ كي يكون تدخلي مناسبًا. قال:

«الحديد نفسه غريب، فلو تأملنا الفراعنة ومشغولاتهم اليدوية لوجدنا أن تشكيل الحديد وصناعته كانا نادرين أو منعدمين في الأغلب، فلم يستخدموا خام الحديد في أي مشغولات لصعوبة الحصول عليه، هذا غير أن الصدأ سيغطيه».

رفع «جيرالد» الخنجر ناحية مرافقيه بحركة مسرحية وهو يقول:

«أما هذا الحديد فلم يصدأ، أليس هذا غريبًا؟ كما يمكنكم تأمل النقوش الهيروغليفية على الخنجر، والتي تقول «معدن من السماء». هل اعتقدوا أن الآلهة أرسلت لهم الخنجر؟ أم صنعته؟ أم أن معدنه غير أرضي؟».

هنا حان وقت تدخلي فقلت بإنجليزية أكسفوردية متحديًا لكنة «جيرالد»:

«أخشى أنك تتكلم بلا منطقية. لقد استخدمت مقدمات غير صحيحة لتقفز على نتيجة غير منطقية. امتلأت التمائم والنقوش الفرعونية بعبارات رمزية تتعلق بالعالم الآخر والآلهة والحياة والموت والبعث، هذه العبارة تنتمي لسلسلة العبارات الرمزية ولا يوجد منطق لأن تأخذ معناها الحرفي وتقول إن المعدن غير أرضي».

كان المصور قد انتهى من تجهيز كاميرته، رفعها ليلتقط لي صورة بسرعة والجميع ينظر لي، أما «جيرالد» فقد نظر لي ببرود وقال:

«كنت أعرف أنك ستتحدث، فقد انتظرتك، دليلي هو تقرير كلية العلوم بجامعة مينيسوتا».

والحق يقال يا «رؤوف» إنني شعرت بالخوف فجأة، لا أعلم شيء عن أي تقرير، لكن أعلم أن جامعة «مينيسوتا» تطوعت بأخذ بعض العينات من المتحف المصري منذ عام لتحليلها ضمن مشروع ترميمي للمتحف. ما الذي أصدرته الجامعة ويتعلق بهذا الخنجر؟! لم أفكر كثيرًا إلا و«جيرالد» يقول بغطرسته:

«التقرير يشير إلى أن تكوين نصل الخنجر هو الحديد مع تركيزات عالية من النيكل والكوبالت، هذه التركيزات لا توجد داخل الحديد على الأرض، أي أنه لا يوجد معدن على الأرض بهذا التكوين. نهاية التقرير تصرح بما قلته؛ إن تلك التركيزات توجد خارج الأرض، أي أننا نتحدث عن خنجر من الفضاء الخارجي».

أخذ المصور لي بعض اللقطات التي أعتقد أنني ظهرت بها مفتوح الفم متسع العينين من الصدمة. لقد تفوق عليّ «جيرالد» وسحقني. هذه المبارزة غير عادلة، فلم أكن أعلم شيئًا عن التقرير، أما هو فقد تباطأ في الحديث عن التقرير ليستفزني كي أعترض في البداية فيحرجني هو في النهاية. فجأة يا «رؤوف» جاءني الإلهام، فصرخت فيهم منتصرًا:

«النيزك».

توقف الجميع عن الحركة أو حتى التنفس، ناظرين لي بترقب. أكملت أنا مبتسمًا:

«عبارة معدن من السماء من الممكن أن يقصد بها النيازك الآتية من الفضاء الخارجي. الأديان القديمة قدست النيازك واعتبرتها أنها

هدايا من الآلهة أو هدايا من الجنة، ومصر سقطت فيها الكثير من النيازك في العصور القديمة، لذلك قدسوا معدنها وصنعوا منه الخنجر. لذلك تركيز الكوبالت والنيكل في الحديد كان غير أرضي لأنه أتى من نيزك».

أخذ المصور بعض اللقطات لي مرة ثانية، ولكني متأكد أن وجهي كان يصرخ بالانتصار، وخاصة بعد أن رأيت وجه «جيرالد» الذي ظهر الغضب عليه. لقد رددت له ضربة أقوى من التي وجهها.

ردّ عليّ بنبرات باردة ووجه غاضب:

«أنا أعتمد على تقرير علمي وأنت تعتمد على استنتاج استخدام النيازك في المشغولات المصرية القديمة، وحتى تأتي بإثبات علمي يظل كلامك مجرد افتراض، أما كلامي فهو حقيقة علمية».

قال مدير دار النشر له، معاتبًا:

«لكن كلامه منطقي، إن أردت أن تتحدث عن الخنجر في كتابك الجديد فيجب أن تذكر نص ما قاله، كي لا تُتهم بعدم المصداقية».

أعتقد أن صاحب دار النشر يتعامل أول مرة مع «جيرالد»، كما أعتقد أنه يريد كتابًا علميًا أكثر من كتب «جيرالد» السابقة التي نشرها مع دور نشر قليلة المستوى كبيرة الانتشار. هز «جيرالد» رأسه وهو يترك الخنجر ويتناول بوق الحرب من على المنضدة ويقول:

«هذا هو بوق الحرب الخاص بتوت عنخ آمون، صنع الأنبوب من المعدن المطلي بالذهب والنقوش، فوهة البوق قطعة منفصلة

لُحمت بالأنبوب بالفضة، الفوهة الذهبية رُسم عليها الملك يمسك الصولجان ويقف أمام «بتاح» الذي تمثل في شكل مومياء. عام 1937 وفي حفل رسمي حاول أحد الأثريين النفخ على البوق أمام الملك المصري «فاروق الأول» تبجيلًا له، لكن البوق أصابه عطب غير مبرر ولم يعزف عليه. أعيد البوق للمتحف ومر بعملية ترميم طويلة، حتى جاء مذيع إذاعة «BBC» البريطانية السيد «ركس كيتتنج» في 31 أغسطس 1939 وأقنع إدارة المتحف ببث حلقة إذاعية من داخل المتحف لهيئة الإذاعة البريطانية، وأن يتم النفخ في البوق لأول مرة في التاريخ الحديث على الهواء أمام 150 مليون مستمع».

للأسف كلامه صحيح، نظر هو لي بطرف عينيه ثم عاد بنظره لهم، وهو يكمل بطريقته المسرحية:

«وقام المذيع ببث اللقاء وهو يقول سيداتي سادتي من داخل المتحف المصري تستمعون لنفير الحرب الخاص بالملك توت عنخ آمون، وعزف على البوق لثوان قليلة».

تنفس «جيرالد» وهو ينظر في وجوههم ليراقب انفعالاتها وأكمل:

«بعدها بأيام، وبالتحديد يوم 3 سبتمبر أعلنت بريطانيا العظمى الحرب على ألمانيا لتبدأ الحرب العالمية الثانية التي استمرت حتى عام 1945 كما تعلمون».

للأسف كلامه صحيح هنا أيضًا، وتسجيل الحلقة ما زال موجودًا بأرشيف إذاعة البي بي سي إلى الآن، كما أن هناك نسخة منه في هيئة الآثار المصرية. قال «جيرالد»:

«من ينفخ البوق يعلن الحرب، هل لأن المذيع بريطاني فبلاده هي التي أعلنت الحرب؟ هل لو نفخه هولندي فستعلن هولندا الحرب بعد أيام على أحد الأطراف؟».

انتهى «جيرالد» من حديثه، بينما المصور يلتقط الصور. نظر لي مرافقوه كأنهم ينتظرون رأيي. ابتسمت أنا وقلت:

«1936 شكلت ألمانيا مع إيطاليا حلفًا عسكريًا سُمي «روما برلين»، وانضمت لهم اليابان فيما بعد. وفي نفس العام شكلت ألمانيا مع اليابان حلف «مناهضة الكومنترن»، ثم في بداية عام 1939 وقعت ألمانيا مع الاتحاد السوفيتي معاهدة عدم اعتداء ونصت على بنود اشتراكهما في الحرب على بعض الدول. العالم كان يشتعل في سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية، وبولندا كانت تقوم بمذابح للألمان في المناطق التي احتلتها من ألمانيا منذ الحرب العالمية الأولى، كانت تقوم باستفزاز «هتلر» عسكريًا للدخول معها في حرب منذ عام 1938، وهو قد استجاب لذلك في الأول من سبتمبر 1939 واحتلها بمساعدة الاتحاد السوفيتي. العالم كله كان يعرف أن الحرب آتية، بل وهناك بعض المؤرخين يعتبرون أن احتلال اليابان للصين عام 1937 هي بداية الحرب العالمية. كلامك خاطئ يا سيد «جيرالد» مرة ثانية».

رد عليّ «جيرالد» بسرعة:

«العالم يشتعل منذ الأزل ويمتلئ بالتحالفات، الآن وقديمًا وفي المستقبل، إنما الحرب هي الشيء النادر».

«إذن أنت تقول بأن النفخ في هذا البوق يصنع الحرب، لماذا لا تنفخ فيه لنرى هل ستعلن بريطانيا الحرب أم لا؟».

«أنا لا أريد لبلدي الحرب، لكن طالما أنك واثق أن البوق لا خوف منه فلِمَ لا تنفخ أنت فيه؟».

ناولني «جيرالد» البوق فأمسكته بحرص شديد وأنا أقول:

«لو نفخت ولم يحدث شيء فأنت مدين لي باعتذار كبير على تشويهك تاريخ أجدادي ومحاولتك إحاطته بالخرافات».

قلت عبارتي يا «رؤوف» ولم أنتظر رد «جيرالد» الذي بُهت. رفعت البوق لفمي ونفخت فيه بتأنٍ فخرج صوتٌ قوي جدًا.. مخيف، أنا نفسي شعرت بالرعب وأنا أسمعه. استمر نفخي لثوانٍ قبل أن تنطفئ الأضواء في المكتب، غرقنا في الظلام فتوقفت عن النفخ.

صرخ أحد مرافقي «جيرالد» أنه يشعر برياح تأتي من مكان ما، أتت أصوات البقية يقولون نفس الشيء، لم أشعر أنا بأي رياح، لكني سمعت صوتًا يأتي من داخل المكتب كأنها حركة أقدام سريعة. عادت الإضاءة مرة ثانية فوجدت العيون كلها تنظر لي متسعة، حتى «جيرالد» نفسه فقد وقاره وهو يصرخ في أنني غبي، أما أنا فناديت بالعربية بأعلى صوت قائلًا:

«تعال يا عم جميل».

انفتح باب المكتب ليظهر عم «جميل» بشاربه وكرشه، بينما قلت أنا بفخر بالإنجليزية:

«السيد «جميل» رئيس الأمن بالمتحف اتفقت معه قبل حضوركم على أن يقف على باب المكتب وينتظر إلى أن يسمع صوت بوق، عندها يغلق زر الإضاءة، لو لاحظتم أن نصف الغرف والمكاتب في المتحف أزرار إضاءتها في خارج الغرفة على النمط القديم».

نظرت لعم «جميل» وطلبت منه بالعربية أن يقف خارج المكتب ويغلق الإضاءة ويفتحها، ففعل، ونظرات الجميع معلقة به. بعد أن انتهى عم «جميل» طلبت منه الانصراف لعمله، ثم قلت لهم بالإنجليزية:

«أخشى أنكم وقعتم في فخ التأثير النفسي فشعر بعضكم برياح وفي الغالب شعر الآخرون بأصوات أقدام تمشي في الغرفة. الحقيقة أن على «جيرالد» أن يعتذر، ليس لي فقط، بل ولمصر كلها على ما يقوله عن آثارنا».

تقدم مني مدير دار النشر وأخرج كارتًا شخصيًا له، أعطاه لي وهو يطلب مني أن أحدثه على أرقام مكتبه في لندن بعد أيام، لينشر لي أنا كتابًا عن التاريخ المصري. ثم نظر للمرافقين المصريين وشكرهم على تعاونهم وطلب المغادرة. خرج من الغرفة و«جيرالد» والصحفي والمصور يتبعانه. تلقيت التهاني من دكتور «سامح» ودكتور «عاطف» اللذان أديا دور المشاهدين لما كان يحدث منذ قليل. اعتذرت لهما بأنني سأدخل الحمام وأعود لهما.

خرجت من المكتب واتجهت لغرفة الأمن لأجد عم «جميل»، وضعت في يده القليل من النقود وأنا أشكره لكنه رفضها وهو

يخبرني بشيء غريب، قال لي إنه لم يغلق زر الإضاءة، لأنه قبل أن يلمس الزر انقطعت الإضاءة عن المتحف كله بعد أن سمع صوت البوق.

تأكدت يا «رؤوف» من كلامه عندما سألت من كانوا بالمتحف، والغريب أنهم جميعًا سمعوا صوت البوق لكن لم يميزوا كينونته، فبعضهم اعتقد أنه راديو يبث مقطوعة موسيقية عالية.

أنا لا أؤمن بالخرافات يا شقيقي، انقطاع الكهرباء أمر طبيعي بمصر، لكن ما هي نسبة احتمالات أن يحدث هذا في لحظة نفخ النفير؟ وهل شعر البعض برياح حقيقية؟ وهل سمعت أنا أصوات الأقدام داخل المكتب تتحرك بسرعة ولم أكن أهذي؟ على كل التقديرات، تظل تلك الحكاية بلا تفسير، وإن لم أكن متأكدًا مما حدث، فعلى الأقل أنا متأكد أن مصر لن تعلن الحرب الآن.

لك تحياتي ووداعي يا «رؤوف»، وأنتظر خطابك القادم. وأرجو أن تحصل سريعًا على درجة الدكتوراة في الهندسة من الاتحاد السوفيتي في أقرب وقت.

شقيقك

رجالي محمد سعيد

القاهرة- مصر

22 مايو 1967

***

في وادي المستضعفين

(1)

«كان لك معايا.. أجمل حكاية.. في العمر كله. سنين بحالها.. ما فات جمالها.. على حُب قبله»

انسابت أغنية «أم كلثوم» من سماعات الكومبيوتر القديم، و«هشام» يجلس أمامه في غرفة نومه، وبجانبه أصدقاؤه «شريف» و«فادي» و«أحمد» ينظرون له بملل وهو يحرك رأسه يمينًا ويسارًا مع كلمات الأغنية.

«سنين ومرت زي الثواني في حبك إنت.. وإن كنت أقدر أحب تاني.. أحبك إنت».

«جرى إيه يا روح أمك؟»

جاءت كلمة «روح أمك» لتنبِّه الجالسين بأن هذا الصوت لم يأتِ من الأغنية. نظروا لبعضهم البعض بدهشة لثوانٍ قبل أن يهزوا رؤوسهم بتفهم وهم يستمعون لسيلٍ من السباب يأتيهم من نافذة الغرفة المطلة على الشارع. الصوت يعود لـ«النونو»، بلطجي المنطقة الذي يفتعل عراكًا كل يوم دون سبب مع أحد المارة. أغلق «هشام» الأغنية وجلس على مقعده المواجه للكومبيوتر،

معطيًا ظهره لأصدقائه الذين بدآوا يتحدثون بشكل طبيعي وأصوات السباب تأتيهم من الشارع وكأنهم تعودوا على ذلك. قال «فادي» بتأفف:

- هو كل يوم «النونو» يعمل خناقة؟

وضع «شريف» قدمًا فوق الأخرى قائلًا:

- لازم يثبت نفسه، علشان الناس متنساهوش مع الوقت.

- إلا هو اسمه «النونو» ليه؟

قالها «أحمد» بهدوء، فقال «شريف» بلهجة العارف بكل الأمور:

- اسمه الحقيقي «عبد الفضيل»، بس هو مسمي نفسه «النونو» علشان اسم يليق ببلطجي. يا راجل دا بقى يشرب بانجو وهو مبيدخنش علشان فاكر إن الصايع لازم يدخن ويشد بودرة.

- أنا فاكر إنه كان بيلعب معانا وإحنا صغيرين، مش هو في سننا برضو؟

- أكبر مننا بسنة واحدة، يعني لو كان كمل تعليمه المفروض يبقى في رابعة كلية السنة دي.

زادت أصوات السباب كثيرًا من طرف «النونو»، حتى سمعوا أصوات رجل يتأوه بشدة، رجحوا أن «النونو» طوّر من مرحلة السباب ووصل إلى العراك بالأيدي. نهض «فادي» و«أحمد» يشاهدان من خصاص النافذة ما يحدث في الشارع، و«شريف» ينظر إلى «هشام» الذي أخذ يحرك سهم الماوس يمينًا ويسارًا على

شاشة الكومبيوتر بلا هدف، يخيل لمن يتابعه أنه شارد الذهن لكنه فجأة قال بجدية شديدة:

- ما كفاية فرجة منك له!

رد عليه «فادي» دون تحريك نظره عن النافذة قائلًا:

- استنى بس، دا «النونو» بيعمل الحركة بتاعته المشهورة، مثبت الواد على الأرض وبياكله على قفاه.

صرخ «هشام» فيهما:

- قلت كفاية.

تذكر «شريف» و«فادي» في نفس اللحظة المشاكل التي بين «هشام» و«النونو» منذ عام، وكيف ضرب «النونو» «هشام» بنفس الطريقة مرتين وأهانه وسط الجميع.

ابتعدا عن النافذة بخجل، وعادا للجلوس. مرت لحظات صامتة طويلة انتهى فيها العراك بالشارع وعاد الهدوء، هدوء ثقيل لزج يشعرك بالاختناق، لأن الجميع يفكر في نفس الأحداث لكن بلا قدرة على إخراجها من حيز الأفكار إلى الكلام الحقيقي. الجميع يفكر فيما حدث قديمًا وما حدث منذ عام واحد.

«النونو» الفتى الذي قرر التحول لبلطجي منذ خمس سنوات بعد أن تعرض والده للضرب من بلطجي آخر في شارع قريب لهم من منطقة «مساكن الزلزال» بالمقطم، تاجر بجميع المخدرات والمكيفات تحت يد أحد المعلمين في المنطقة والذي أعطاه الحماية

ورأس المال والبضائع، حماية من كل نوع يمكن تخيله، فرجال المعلم يساعدونه إذا لزم الأمر، وصلات المعلم ببعض ضباط الشرطة الفاسدين تحت أمر «النونو»، وجميع أنواع المخدرات يقوم بتوزيعها لحساب المعلم ويقبض هو نسبة من الأرباح.

ولا يعرف أحد السبب الحقيقي وراء هذا الاهتمام، يقولون إن المعلم يرى في هذا الفتى مستقبلًا إجراميًا واعدًا، ومن واجبه أن يهتم بتنشئة الجيل القادم ليحملوا الراية من بعده. ويقول آخرون إن بينه وبين «النونو» علاقة جنسية شاذة، وآخرون يصرون على أن «النونو» هو ابن المعلم من علاقة غير شرعية وقد تركه مع رجل طيب ليربيه حتى يشتد عوده ويعود للمعلم ليكمل تربيته. القصص متباينة لكنها تبقى داخل صدور أهل منطقة «مساكن الزلزال»، لا تجاوز ألسنتهم كي لا تُقطع.

و«النونو» يصر على الحياة كبلطجي كلاسيكي يستمد طريقه من الأفلام المصرية التي صوّرت البلطجية وظهرت آخر عشر سنوات، فالنونو يستمتع بالجلوس أمام بيته في الشارع مرتديًا فانلة داخلية بيضاء متسخة وسروال «ترننج» قديم و«كوتشي» أبيض بهت.لونه فاقترب من الأصفر المتسخ، يدخن سيجارة ويشرب كوب شاي أسود كالحبر، دائمًا كوب الشاي بجانب السيجارة، دع الكوكاكولا والعصائر للخائفين. على كل حال لن تستطع تخيل بلطجي يشرب السيجارة بجانب عصير المانجة.

يحب «النونو» فتح فمه دائمًا بلا داعٍ، كأنه يهم بقول شيء

وفتحه الفم غير المفهومة تكمل الصورة مع تقطيب جبينه ومنع الابتسامات.

أضف على هذا صوته المبحوح الذي لا يفهم أي شخص في المنطقة كيف اكتسبه، وطريقة حديثه البطيئة الناعسة والتي لا مبرر لها هي الأخرى، فهو لا يتناول المخدرات كثيرًا، وكأنه يمثل دور غائب الوعي دائمًا.

حاول الكثيرون قديمًا الاحتكاك به لكنه برغم نحول جسده قد فتك بهم بشراسة غريبة، واستخدم تلك المطواة التي يحملها معه دائمًا بحرفية يحسده عليها كل البلطجية. استطاع إحداث شروخ في عظام من وقفوا أمامه، وجروح على أجسادهم لم تُشف حتى الآن. فرض سطوته على مجموعة الشوارع المحيطة بمنزله، وهي سطوة لم تطلب من أهالي المنطقة سوى أن يبجلوه ويظهروا الاحترام والخوف عند المرور أمامهم.

«هشام» على الناحية الأخرى كان فتى ذكيًا له طلة محببة عند أهل المنطقة بابتسامته الدائمة وتواضعه في التعامل معهم. شقيقته «ريم» - توأمه غير المتماثل- كانت محبوبة هي الأخرى لرقتها وهدوئها التي تماثل فيهما أخاها، وأدبها الذي أصبح مثالًا تضربه أمهات الشارع لبناتها، مكتملة الأنوثة هي، جميلة، تداري بحجابها شعرًا طويلًا ناعمًا يتذكره الجميع عندما لعبت في طفولتها مع بقية أطفال الشارع قبل ارتدائها إياه.

وكان طبيعيًا أن يتوافد العرسان طابورًا قبل دخولها الجامعة،

والجميع رفضتهم أمها بسبب وصية والدها قبل موته قديمًا بأن تحصل «ريم» على الشهادة الجامعية قبل زواجها. ولأنها في كلية الحقوق مع شقيقها فقد اقترب موعد تخرجها واقترب أمل شباب المنطقة في إعادة الكرّة وطلب يدها، لربما فاز بها أحدهم.

حتى بدأت الأحداث غير المرغوبة؛ تقدم «النونو» لطلب يدها، رفض «هشام» وأمه كان متوقعًا ومنطقيًا، ورفض «ريم»، بل ورعبها من مجرد التفكير بالزواج من «النونو»، كان واضحًا عليها. تم تبليغ «النونو» برفض الزواج بأدب شديد، اختفى هذا الأخير عن المنطقة ليومين، اعتقد البعض أنه رحل أو قُبض عليه بالصدفة، لكنه عاد مجنونًا.

زادت فتحة فمه اتساعًا وكثرت أكواب الشاي والسجائر وهو يجلس يوميًا بالقرب من العمارة التي تقطن بها «ريم». ينظر لها نظرة غريبة وهي تسير بجانب شقيقها صباحًا للذهاب للكلية. حاول «هشام» تجنب التركيز معه ومع نظرته الغريبة التي هي خليط من العتاب والغضب والذهول.

في عودتها من الكلية تأتي وحيدة في الغالب لأن «هشام» يتمشى مع أصدقائه، ونفس نظراته تطاردها. استمر الحال بهذا الشكل المريب لثلاثة أيام، فجأة قرر «النونو» اتخاذ ردة فعل.

في أحد أيام عودتها، وقف «النونو» بجانب موقف الميكروباص القريب من المنطقة، وبجانبه أحد رجال المعلم يقود «توكتوك»

انتظر لساعات يراقب الميكروباصات، خطته واهية جدًا، فلو لم تأت هي لهذا الموقف لانتظرها كل يوم، لكن ها هي «ريم» تنزل من الميكروباص وحيدة، ركب في المقعد الخلفي للتوكتوك وأمر سائقه أن يسير خلفها في الشوارع دون أن تلاحظهم.

في شارع جانبي لا يسير فيه الكثير من الناس، أمر سائق «التوكتوك» بالإسراع والوقوف بجانبها. سحبها «النونو» لداخل التوكتوك والسائق يحاول الإسراع بـ«التوكتوك»، «النونو» عند هذا الحد لم يكن فكر ما الذي ينوي فعله، حاول تقبليها فصرخت هي وهي تبعد وجهه عنها، فترك العنان ليده لتحتل جسدها عشوائيًا، وكلما اعترضه جزء من ملابسها مزقها بعصبية.

بدا على السائق التوتر فزاد من سرعة «التوكتوك» وصراخ «ريم» يزيد، محاولةً إبعاد يده بأقصى قوة لديها، لكنه نجح في تمزيق جزء من ملابسها عند الصدر بمطوته فطاله نصل المطواة ليجرح أعلى صدرها بجرح طولي.

انتبه الناس وحاولوا إيقاف «التوكتوك» الذي جُنّ سائقه وهو يتفادي المارين بحركات بهلوانية حتى انقلب على جانبه الأيسر بعد مروره على حجر كبير ملقى على جانب الطريق.

انقلب، وتعالى صراخ «ريم» أكثر وهي تحاول الهروب منه، والغريب أن «التوكتوك» انقلب على ناصية الشارع الذي تقطن هي فيه. تجمّع العشرات حول «التوكتوك» يخرجون «ريم» والبعض يداري عينيه عن جسدها الذي تمزقت الملابس في أكثر من موضع

فيه، وظهر جزء من صدرها مختلطًا بالدماء التي رسمت بقعًا على بقية الملابس التي تسترها.

داري البعض جسدها بعباءة أتت فجأة من أحد الأهالي، بينما هرب «النونو» والسائق بعد خروجهما. أصرت «ريم» على الذهاب لقسم البوليس لتقديم بلاغ، رفض أهالي الشارع وحاولوا تهدئتها لكنها صرخت بانهيار أنها ستذهب للقسم.

هنا اختلط الحابل بالنابل، ولم يعرف أحد ما الذي حدث. ذهبت «ريم» بنفس حالتها لتقديم البلاغ ومعها عدد من أهالي الشارع ولحقت بهم الأم المنكوبة. عاد الجميع للشارع عدا «ريم»، ظهر أمين شرطة من اللامكان في القسم وطلب «ريم» وحدها لإكمال المحضر، فجأة أدخلها الحجز الاحتياطي وأخبرهم أنها ستعرض على النيابة بتهمة ممارسة الدعارة، لم يفهموا ما حدث، لكنهم وجدوا محضرًا جاهزًا كُتب فيه أن «ريم» قُبض عليها داخل سيارة بالمقطم ووُجد معها مالًا، دلالة على ممارسة الجنس مقابل المال، واعترفت ووقعت على المحضر.

كما أخبرهم أمين الشرطة بأن الحل لخروج ابنتهم وعدم تسجيل المحضر الليلة أن يعتذروا لـ«النونو» طالبين منه السماح والرضا.

يمكنك أن تتخيل ما الذي فكر فيه الجميع: المعلم الذي يحمي «النونو» قام باتصالاته وقلب كل شيء على «ريم»، وزيادة في الإذلال يطلب من المعتدَى عليها أن تعتذر للمعتدِي.

في وسط كل هذا نسي الجميع «هشام» الذي عرف باعتداء

«النونو» على شقيقته فأتى للمنطقة جريًا، ليجد «النونو» جالسًا أمام منزله يدخن السجائر ويشرب الشاي ويترك فمه مفتوحًا. هجم عليه يكيل له اللكمات لكن «النونو» تفاداه وألقى الشاي الساخن على وجهه. حاول «هشام» مرة ثانية الهجوم عليه لكنه تلقى الكثير من الضربات بكل أجزاء جسده، ثم كبّله «النونو» ووضع وجه «هشام» أرضًا ثم جلس فوق ظهره وعرّى موخرة رأس «هشام» وهو يصفعه على قفاه بيده اليمنى ويكبل حركته بيده اليسرى، ووراء كل صفعة ينعته هو وشقيقته بأقذر الألفاظ، حتى أخرج مطوته وهو يقول صارخًا:

- على الله أشوف أختك تخرج من بيتكم من النهارده، اللي يعفيها من دا إنها تتجوزني، غير كدا هادبحك وأدبح أمك ومحدش ليه عندي ديّة.

جميع من في الشارع وقفوا صامتين، اللهم إلا من صرخات وعويل والدة «هشام» التي حجزتها النساء عند مدخل بيتها كي لا تتدخل وتصاب.

نظر «النونو» في عيون الواقفين وهو يشعر بالسلطة تتسلل أكثر لداخله، رفع مطواته عاليًا وهو يقول لهشام:

- وعلشان متنساش الكلام اللي قولتهولك، خد دي تفكرك بيه.

أنزل المطواه على مؤخرة عنق «هشام» وأحدث فيها جرحًا سطحيًا، ثم قال:

- ودي بقى علشان تفتكر دايمًا إنك مش راجل.

ثم أحدث جرحًا آخر في مؤخرة «هشام» تناثرت على إثره الدماء وأغرقت سرواله. نهض «النونو» وعاد للجلوس على الدكة الخشبية أمام منزله بينما الأهالي يحملون «هشام» للمستشفى.

في الواقع خرجت «ريم» من القسم في نفس الليلة دون الاعتذار لأحد، دخلت المستشفى لتقطيب جرح صدرها ثم عادت للمنزل. أرسل «النونو» أحد رجال المنطقة لشقتها يخبرها هي وأمها أنه أخرجها من الحجز كبادرة لحسن النية، لكنه يؤكد عليها بألا تخرج من المنزل إلا لو وافقت عليه زوجًا لها.

وبشكل غير منطقي سارت الحياة في المنطقة، لم تخرج «ريم» ثانيةً من المنزل، وعاد «هشام» للمنزل بجروح في كرامته لم يستطع من وقتها أن يرفع عينه في عين شقيقته، وانتظمت الحياة بطريقة غير مفهومة.

حدث هذا منذ عام بالكامل، لم يحدث أي احتكاك بين «هشام» و«النونو» إلا مرة واحدة منذ بضعة أشهر، عندما قرر «هشام» تقديم بلاغ في «النونو» ليجد أن هذا الأخير يستقبله عند عودته للشارع. تلقى على يديه علقة ساخنة أخرى انتهت بصفعات سريعة على مؤخرة عنقه لمزيد من الإهانة له وتذكيرًا للجميع بأن «النونو» ما زال مسيطرًا.

انتشرت القصة وعرفها الجميع حتى أنها وصلت لأصدقاء «هشام» بسبب قرب مساكنهم من المنطقة، وللأسف لا يملكون شيئًا

ليقدموه لصديقهم خوفًا من انتقام «النونو» الذي ذاع صيته أكثر الشهور السابقة، فتجاهل الجميع فتح الموضوع أمامه، لكن نظرات الشفقة له وضحت له معرفتهم بالحكاية ونهايتها التراجيدية.

مرت كل تلك المعلومات والمواقف على رأسي صديقي «هشام» الذي ما زال يجلس مشبّكًا ذراعيه أمام صدره يمرر عينيه بينهما، عالمًا بما يجول في فؤاديهما. ابتلع ريقه وقال:

- روحوا انتوا دلوقت، عايز أنام بدري علشان نازل الكلية بكرة الصبح.

- هتنام الساعة 8 بالليل؟ إيه جو الفراخ دا؟

قالها «فادي» فلم يبدُ على «هشام» أنه سيجيب. نهض الجميع لكن «هشام» قال:

- خليك هنا يا «شريف» علشان أقولك على حاجة.

جلس «شريف»، و «هشام» يرشد «أحمد» و«فادي» المندهشين إلى طريق باب الشقة بنفسه، ويودعهما على سلم العمارة. عاد «هشام» إلى «شريف» وأغلق باب الغرفة عليهما، وهو يقول:

- ها إيه الأخبار يا «شريف» في الموضوع اللي اتكلمنا فيه؟ هاينفع الليلة؟

- أنا أخدت الإذن من شيخي إنك هاتزور المكان وبس.

جلس «هشام» على طرف فراشه وهو يقول متلهفًا:

- بس إنت وعدتني إنك هاتفتح ليا باب الخلوة.

تمطى «شريف» في مقعده وقال:

- المفروض مكنتش تعرف حاجة من المغارة دي من الأصل، ولا تعرف حاجة عني، لكن إنت صاحبي من الحضانة، ومقدرش أخبي عنك حاجة، وهافتحلك باب الخلوة.

- وتسيبني فيه الليلة كلها.

- مش هاتستحمل تقعد ربع ساعة يا «هشام»، على العموم براحتك، أنا هاكون مستنيك في مكان قريب، لو حبيت تخرج في أي وقت هاتلاقيني موجود.

- مش هاستحمل ربع ساعة! ليه؟ فاكرني هاخاف؟!

ابتسم «شريف» وهو يُخرج من جيب سرواله مسبحةً بنية اللون تتكون من أربعين حبة، نُقش على كل حبة ثلاثة حروف باللغة السريانية. قال وهو يرفع المسبحة ناحية وجهه ويلمس إحدى حباتها:

- دا إنت سمعت صوت واحد من الخدمة اللي معايا جبت عرق من كل حتة، أومال لو سمعت الجن في المغارة هاتعمل إيه؟!

نظر «هشام» للمسبحة بترقب، فقد كان له تجربة مرعبة معها منذ أسبوعين. حرك «شريف» إحدى حبات المسبحة وهو يقول:

- فاكر لما مسكت السبحة دي من ورايا ولعبت فيها؟

تجهم وجه «هشام» وهو ينظر ليده اليمنى، وبالتحديد أثر حرق طفيف ببعض أصابعه، وقال:

- السبحة سخنت كأنها مولعة نار، وصوت في ودني بيؤمرني أسيبها بسرعة.

- احمد ربنا إني كنت قريب منك ولحقتك.

ابتسم «هشام» وقال بخبث:

- بس يا أخي برغم إني أعرفك من زمان عمري ما تخيلت إن ليك في موضوع الجن، ولا عمرك لمحت لي في كلامك حتى. شكلك حكيت كل حاجة بعد موضوع السبحة، يعني لو مكنش حصل اللي حصل عمرك ما كنت هاتقول.

ابتسم «شريف» وقال:

- ما أنا قلت لك يا صاحبي، مش مسموح لينا نعرّف حد بشكل مباشر إننا بنتعامل في المسائل دي، واللي بيكشف السر الشيخ بتاعه بيعرف وبيخرج من الطريق على طول.

- بس انتوا مش طريق صوفي؟

- فينا اللي من طريق صوفي وفينا اللي عادي، شيخنا بيختارنا بنفسه أو حد فينا بيرشح له حد، لكننا بنمشي في طريق شبه الطريق الصوفي، الفرق إننا منقدرش نسيب طريقنا.

- أنا فاكر إنك قلت لي على إنكم متقسمين على أربع أقسام، ناس منكم بتتخصص في الخدمات بتاعت الجن والعفاريت والتعامل معاهم، وقسم تاني بتاع السحر باين؟

قال «شريف»:

- القسم التاني بتاع الأقسام والعهود والطلاسم والأقلام الروحانية، والقسم التالت دا الأفلاك والنجوم.

- دا اللي هو حظك اليوم وكدا؟

- لا يا أخي.. دا اللي بيعرف التوقيتات المناسبة لفك السحر أو بدايته، أو الأماكن اللي مدفون فيها السحر أو مدفون فيها الكنوز والمقابر.

- والقسم الرابع؟ إنت مقولتليش عليه قبل كدا.

- دا بقى درجة الدكتوراة، اللي بيعرف كل الأقسام التلاتة، ودا اللي بيتأهل إنه يكون الشيخ الجديد أو إنه يسافر في مكان تاني ويبدأ تكوين مجموعات تحتيه زي طريقتنا دا.

- وانت طبعًا في القسم الأول.. بتاع الجن والخدمات؟

- آه.. لكن أعرف كتير من بقية الأقسام التانية، وعايز أعيد كلامي عليك، أنا مقدرش أستخدم خدمات الجن اللي معايا في أي أذى لأي إنسان، حتى لو بغرض حماية إنسان تاني، كل تعاملاتي مع الجن وبس.

- طب وكدا إنت استفدت إيه؟! لا حد يعرف حاجة عنك، ولا تقدر تدافع عن نفسك لو حد ضربك.

- القوة مغرية يا «هشام»، لو النهارده أنا دافعت عن نفسي قدام واحد بالاستعانة بالجن، يبقى بكرة هاعتدي عليه، وبكدا ميبقاش فيه عدل.

ضحك «هشام» بعصبية وقال:

- طب ما هو دا جوهر العدالة في الدنيا.

تأهب «شريف» في مقعده، وحاجباه ينعقدان علامة على التركيز و«هشام» يكمل كلامه:

- الإنسان بيطلب العدالة في حالة واحدة؛ لما يفشل إنه يظلم اللي ظلمه.

- منطق غريب.. كدا إنت بتهدم فكرة الإنسان نفسه، كأنك بتقول إن أنا وانت ممكن نقتل بعض فجأة بس اللي منعنا إن كل واحد فينا قوي.

- لا يا «شريف»، إحنا الناس الضعيفة، اللي بتضطر تعيش بالفضيلة والأخلاق بينها وبين بعضيها.

- طب ما أنا معايا سلطة أهو وخدمة من الجن، وعمري ما أذيت حد بيها.

- دا لإن فيه سلطة أقوى منك بتحكمك، شيخك حذرك من استخدام سلطتك، لإنه يقدر يظلمك لو ظلمت حد تاني.

- طب وشيخي مبيضرش حد ليه؟

- لإن أكيد فيه سلطة أكبر منه، كل حاكم فوقه حاكم تاني بيحكمه، لحد ما نوصل لربنا.

- منطقك مخيف، أنا قريت في الاشتراكية والشيوعية وكلامك مش زيهم، اوعى تكون ملحد ياض؟!

ضحك «هشام» وقال:

- مش للدرجة دي، الإلحاد ترف مش للي زينا، إحنا قلوبنا هي اللي البوصلة اللي بتوجهنا، وبوصلتنا بتقول لنا إن فيه إله حكيم هايحقق في الآخرة معنى العدل اللي افتقدناه في الدنيا.

- كلامك اتغير أوي يا «هشام»، كأنك كبرت فجأة بعد...

بتر «شريف» عبارته، لكن «هشام» قال بهدوء:

- بعد اللي عمله «النونو» فيا..

أشاح «شريف» بوجهه بعيدًا كي لا تتلاقى عيناه بعيني صديقه، لكنه حاول أن يكسر حدة عبارته فقال وهو يخرج سيجارة من جيب سرواله ويقول مبتسمًا:

- ما تخلينـي أشرب سيجارة، ومتخافش على صدرك، هانفخ الدخان جنب الشباك.

- الريحة هاتلزق في الأوضة، وأمي مش هاتصدق إنك إنت اللي شربتها.

- يا عم دي سيجارة فرط نفسي أشربها من الصبح.

نهض «شريف» من مقعده ووقف بالقرب من النافذة وهو يخرج القدّاحة من جيبه مبتسمًا، ولكنه توقف قبل أن يشعلها ونظر لهشام قائلًا:

- اوعى تكون عايز تخش المغارة الليلة علشان يبقى معاك خدمة من الجن وتنتقم؟

لم يرد «هشام»، بل نهض من على طرف الفراش وهو يقول:

- يلّا بينا نتحرك دلوقت، وابقى اشرب سيجارتك وإحنا رايحين جبل المقطم.

***

(2)

الساعة تقترب من التاسعة مساءً، والظلام يهبط على جبل المقطم في تلك الناحية لا يضيئه إلا ضوء القمر. تسلق «شريف» ذلك المنحدر وخلفه «هشام» الذي ينظر لخطواته جيدًا، فهو برغم سكنه بجوار جبل المقطم إلا أنه لم يفكر ولا مرة في صعوده بتلك الطريقة الغريبة، وفي هذا الموقع، وها هو يتبع خطوات «شريف» بحماسة شديدة وقليل من الحذر.

- قول لي يا «شريف».. إنت ليه وافقت تدخلني المغارة بتاعتكم دي من الأول؟

لم يسمع ردًا من «شريف» لنصف دقيقة وهو يصعد بحذر إحدى الصخور، لكنه قال بعد صعوده:

- إنت ليك أكل ولّا بحلقة؟

سار «هشام» على خطاه قائلًا:

- إنت كل يوم بتطلع بالطريقة دي علشان تروح المغارة؟

- محدش فينا بيروح المغارة إلا مرة واحدة، لما يكون اتأهل علشان يبقى معاه خدمة من الجن بيدخل المغارة بعد ما ياخد الإذن من الشيخ ويعمل خلوة من يوم لتلات أيام، لو عرف يتواصل مع حد من الجن واقتنع إنه...

توقف عن الكلام وهو يشعر باختلال توازنه، لكن «هشام» مد يده إليه ليسنده، شكره «شريف» وأكمل كلامه وهو يصعد:

- زي ما كنت بقول لك، لو اللي دخل المغارة عرف يتواصل مع حد من الجن واقتنع إنه اكتفى بعدد الجن اللي هايتواصل معاه بيخرج من المغارة ويرجع للشيخ علشان يعلمه إزاي يتعامل معاه.

- هو إنت ممكن يكون عندك عدد كبير من الجن في خدمتك؟

- أي عدد، لكن اللي زيي عمره ما يقدر يتواصل مع أكثر من 100 واحد، هاعمل بيهم إيه هو أنا داخل حرب!

اقترب الاثنان من مبنى مهيب لم تتضح معالمه بالكامل، لكن «هشام» شعر أنه رآه أكثر من مرة. توقف هذا الأخير عن الصعود وقال لشريف:

- هاموت وأسألك على حاجة من ساعة ما عرفت إنك بتتواصل مع الجن..

توقف «شريف» ونظر لهشام منتظرًا السؤال.

- اوعوا يا «شريف» تكونوا من اللي بيدخلوا الحمام يستحموا باللبن ويدوسوا على القرآن علشان تعملوا سحر؟

لم يبدُ على «شريف» أنه فهم عبارة «هشام» في البداية، لكنه ضحك فجأة، ضحك بقوة حتى اهتز جسده وسقط على ركبتيه على الأرض وصوت قهقهاته يصنع صدى صوت في محيط الجبل.

شعر «هشام» بالحرج وهو يقول:

- بتضحك ليه يابني؟

نهض «شريف» وهو يعود للسير، قائلًا من وسط بقايا ضحكاته:

- أصلي سمعت الحوار دا كتير أوي، محدش بيعمل كدا يا اسطى. فيه سحرة بيشتغلوا في الأعمال والأحجبة والحاجات التافهة دي مقابل فلوس، وساعات بيبقى معاهم جني أو اتنين بالكتير أوي، دول إحنا بنواجههم ونحرمهم من قدراتهم. طب هاقول لك على حكاية.. من سنة كان فيه ساحر في المنيل مسمي نفسه «أبو منذر المغربي»، وهو لا اسمه «أبو منذر» ولا هو من «المغرب»، كان بيعمل إعلانات جلب الحبيب اللي بتيجي على التلفزيون دي، الشيخ بتاعنا جمع اللي معاه في الطريق متخصصين في خدمات الجن وكنت أنا ضمنهم، وسألنا مين فينا يحب يروح لـ«أبو منذر» دا ويخلص الموضوع.

- تقتلوه؟!!

- يلا ما قلت لك مفيش قتل، كتير منا طلبوا يروحوا للراجل دا وأنا منهم. الشيخ اختار واحد منا وللأسف مكنتش أنا، الشاب راح لأبو منذر وقتل الجن اللي معاه وعمل حاجة اسمها الإغلاق عليه.

- إيه الإغلاق دا؟

- حاجة تمنعه إنه يستدعي جن تاني لخدمته، أو إنه يقدر يعمل سحر تاني.

- بالسهولة دي؟!

- لا يا معلم، الإغلاق دا محتاج متابعة كل 90 يوم، لأن في يوم من الأيام ممكن الساحر دا يلاقي طريقة ويقفل الإغلاق.

- يعني انتوا عملتوا سحر للساحر؟

ابتسم «شريف» قائلًا:

- حاجة زي كدا.. وسبحان الله يا أخي «أبو منذر» دا لسه الناس بتجيله وهو بينصب عليهم إنه ساحر، وشغال الله ينور، اتحول من ساحر لنصاب.

- راجل زي دا كان لازم يموت.

توقف «شريف» عن الصعود ونظر لهشام للحظات بلا تعبير على قسمات وجهه، ثم عاد للصعود. بعد دقيقة وجد «شريف» نفسه يمر على مجموعة من شواهد المقابر صفراء اللون وعليها نُحتت كلمات محيت معظمها.

- إنت جايبني المقابر يا «شريف»؟!

- لا يا عم.. دا كام قبر كدا اندفن فيهم ناس من أهالي المقطم زمان، أصلهم كانوا بيتباركوا في الزمن القديم بجبل المقطم، وخصوصًا بالمكان دا.

كانا قد وصلا للمبنى الذي شعر «هشام» أنه رآه من قبله وبالفعل أدرك من موقعه أنه كلما مر بطريق الأتوستراد لمحه بطرف عينيه، لكنه لم يعرف كنهه، لأنه كان على إحدى قمم جبل المقطم وقد حُفر في الصخر. وفعلًا بعدما وجد نفسه أمامه تأكد من نظريته.

هـذا مسـجد حُفـر في صخـور الجبـل بشـكل مهيـب، كأن مـن قـام بهـذا العمـل الفنـي لا ينتمـي للجنـس البـشري. منذنـة طويلـة لم يـرَ مثيلتهـا مـن قبـل في المسـاجد الأخـرى، سـور متهـدم يحيـط بسـاحة فارغـة داخلهـا نُحتـت الكثـير مـن الأشـياء كمحـراب القبلـة وبعـض الكتابـات التـي لا تظهـر في الظـلام، كـما أن هنـاك مدخـلًا يفـضي لقبـة صخريـة لم يفهـم «هشـام» معنـى وجودهـا. المشـكلة أن ضـوء القمـر وحـده لم يكـن ليُظهـر لـه كل التفاصيـل، لكـن هـذا المسـجد في الليـل يعطيـك إيحـاءً بالخـوف لا الروحانيـة.

- دا مسـجد «شـاهين الخلـوتي»، محفـور في الجبـل مـن حـوالي 500 سـنة، بنتقابـل مـع شـيخنا سـاعات في المكان دا.

هز «هشام» رأسه بلا معنى وهو ينظر حوله.

- مين؟؟

جـاء الصـوت مـن اللامـكان، فقفـز «هشـام» للأعـلى وجسـده يرتعـش. ضحـك «شريـف» وهـو يخـبره قائـلًا:

- متقلقـش.. دا واحـد مـن حـراس الـوادي، بيبقـى موجـود لمـا حـد يكـون فـوق.

حاول «هشام» السيطرة على انفعالاته وهو يقول:

- وادي إيه وحد فوق إيه؟!

تجاهله «شريف» وهو ينظر في آحد الاتجاهات قائلًا بصوتٍ عالٍ:

- أنا «شريف».. جاي أقابل الشيخ.

قالها وأخرج هاتفه المحمول من جيبه فاتحًا كشاف الإضاءة داخله لينير الطريق لنفسه وهو يقول:

- بص لخطوات رجليك وإحنا طالعين دلوقت.

خطا «شريف» للأمام باتجاه مدخل صغير الحجم منحوت في الجبل وهو يقول:

- أنا جايبك علشان تقابل الشيخ. قبل ما تروح المغارة، هو طلب يشوفك علشان يسمح لي أدخلك.

- إنت بتسلمني تسليم أهالي!

قالها «هشام» وهو يخرج هاتفه المحمول ويضيء الكشاف ليخرج له شعاع الضوء منيرًا الأرض الممتلئة بالأحجار والرمال، متتبعًا خطوات «شريف» إلى المدخل المنحوت في الصخر، أو هكذا بدا له. دخل «شريف» من بوابة صغيرة وصعد سلمًا حجريًا لكن «هشام» توقف لثوانٍ وقد وقعت عيناه على عبارة نُحتت بجانب المدخل في الصخر، عبارة كأنها كُتبت منذ قرون، وجّه كشاف الهاتف ناحيتها فعرف أنها آية قرآنية سمعها من قبل.

«يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور».

صعد السلم الحجري وهو يقول:

- إلا يعني إيه «خائنة الأعين» دي اللي محفورة على المدخل؟

سمع صوت «شريف» يقول:

- والله ما أعرف، إلا إنت شوفتها في أنهي مدخل؟

- المدخل دا، قبل ما أطلع السلم.

- مشوفتهاش قبل كدا.

السلم قديم لكن قوي، يصعد بشكل حلزوني معطيًا شعورًا بفقدان الاتجاهات لمن يصعده. بعد دقيقة من الصعود وصلا لشبه غرفة بنافذة كبيرة تطل على مساكن المقطم بالكامل. إضاءة القمر تنير جزءًا كبيرًا من تلك الغرفة.

على الأرض جلس رجل في الخمسين من العمر، يرتدي قميصًا وسروالًا، يجلس متربعًا في ركن الغرفة، وأمامه طبقين صغيرين لم يتبين «هشام» ما بهما.

حاول التدقيق في ملامح الرجل ففشل، لم يلتقط من ملامحه إلا أنه وسيم، وبشرته تقترب من اللون الأسمر، أو هكذا تخيل، فالقمر لا يلقي بضوئه عليه.

أغلق «شريف» ضوء كشاف الهاتف المحمول، وتبعه «هشام» في ذلك وهما يتقدمان إلى جانب الرجل.

- سلام عليكم يا شيخنا، أعرّفك بصاحبي «هشام» اللي قلت لحضرتك عليه..

تقدم «هشام» ومد يده ليصافح الشيخ. شعر «هشام» ببرودة عجيبة في يد الشيخ أضافت إجلالًا عليه، لكن الشيخ لم يترك يد «هشام» بل أمسكها بيده اليمنى ووضع بها شيئًا بيده اليسرى.

سرت قشعريرة في مؤخرة عنق «هشام» وهو يقرِّب يده من عينيه ليعرف ما بداخلها فوجدها.

- شوية لب علشان تقزقز وتسلي وقتك.

قال الشيخ تلك العبارة وهو يعطي «شريف» هو الآخر حفنةً من اللب بيده. جلس الاثنان أمام الشيخ الذي قال:

- ابقوا ارموا القشر في الطبق دا.

شعر «هشام» بأنه يشاهد فيلمًا دراميًا تخلله مشهد كوميدي فجأة، لدرجة تجعلك تفكر هل يجب أن أضحك أم أنتظر علني أجد مغزى آخر للمشهد.

- تخيلت إنك هاتقابل شيخ ليه هيبة وطلة، أو على أقل التوقعات ميكونش قاعد في مكان زي دا بيقزقز لب؟

لم يجد «هشام» ما يجيب به على كلمات الشيخ الذي قال:

- «شريف» رشحك علشان تكون معانا، بس أنا رفضت لأسباب تخصني.

- وأنا مطلبتش أنضم ليكم.

ابتسم الشيخ ووضع بعض اللب في فمه وهو يقول:

- «شريف» بيحبك وكان عايز ينفذ لك طلبك، وأنا وافقت لما لقيته مصمم على كدا، لكن ممكن يا «هشام» تقول لي إنت عايز تدخل مغارة الخلوة ليه؟

- عايز أشوف الجن.

قالها «هشام» بتلقائية وبصدق، فوجد الشيخ يشيح بوجهه لينظر عبر النافذة ويقول بصوتٍ هادئ رخيم:

- مش عارف كل الناس متحمسة ليه إنها تشوف الجن! ياما قابلت ناس زيك طلبت تشوف الجن وتتعامل معاه، وأول بس ما يحسوا إنه موجود معاهم يغمى عليهم.

- بس أنا مش زيهم.

لم ينظر له الشيخ وكأنه يطلب منه بصَمتِه أن يُكمل، فأكمل قائلًا:

- اللي بيقول إنه عايز يشوف الجن ياما بيكون مش مصدق أو فاكر نفسه جرئ، ودول بيكونوا أكتر عرضة للصدمة، أما أنا فخايف وعامل حساب لحظة زي دي.

نظر الشيخ له بطرف عينه وقال:

- تعرف إن المصريين القدماء كانوا بيقدسوا جبل المقطم، معظم الأديان ليها حكاية مع الجبل ده، يمكن علشان دايمًا قريب من العَمَار لكن اللي يدخله يحس إنه انعزل عن الدنيا. كتير من الزهاد والعباد سابوا الدنيا وقعدوا في الجبل يتعبدوا في مغاراته، لا خافوا من وحوش ولا حيّات ولا عقارب.. ولا بشر ولا جن، علشان كدا كان الجن تلاميذهم وخدامهم.

توقف الشيخ عن الكلام وتناول بضع حبات من اللب بشكل قطع الحالة الروحانية التي يحاول أن يتصوره بها «هشام».

- المغارة اللي إنت هاتروحها دي يا «هشام» موجودة من زمان أوي، كانت محراب لواحد من الزهاد اسمه «طاهر بن ميمون المصري»، بيختلط فيها عالم البشر والجن، بيسمعوا بعض بوضوح، يمكن تلاقي فيها مرادك، ويمكن تتئذي، إنت مش واحد من طريقي، فملكش عندي حماية، يمكن لما تخشها ترتاح، ويمكن توصل لبداية طريقك.. أو نهايته.

أخرج الشيخ قشر اللب ووضعه في الطبق الثاني دون أن ينظر لهما. ران الصمت فترة على الجالسين إلى أن قال «هشام»:

- قبل ما أطلع لك سمعت صوت بيقول «مين»، «شريف» قال لي إنه حارس، الحارس دا من البشر ولّا من الجن؟

- إنت عايزه يكون إيه: راجل عادي فقير بنديله قرشين كل شهر علشان ياخد باله من المكان؟ ولّا مارد من الجن من خدمتي الشخصية ومعاه أتباع كتير بيحرسوا المكان من الجن والبشر؟

- مش عارف عايز إيه.

- بالعكس، طريقتك في الكلام معايا بتقول إنك عارف اللي إنت عايزه كويس، على العموم تقدر تروح مع «شريف» المغارة دلوقت، لكن مش مسموح ليك إنك تقعد أكتر من ليلة واحدة. «شريف» هايدخلك لجوه ويسيبك وممنوع عليه يدخل تاني، إنت اللي هاتخرج له لما تزهق.

هنا قال «شريف» لأول مرة منذ بداية الحوار:

- أنا هافتح له باب الخلوة جوه المغارة علشان يشوفها بس.

نظر الشيخ لشريف وابتسم ابتسامة بلا معنى، فتنحنح «هشام» ونهض. تبعه «شريف» قائلًا:

- هاستأذنك يا شيخ؟

- بكرة في نفس التوقيت هاتلاقيني هنا لو احتجتني.

هز «شريف» رأسه بأدب وهو يلقي السلام على الشيخ ويغادر، و«هشام» يتبعه بعدما أخرج هاتفه المحمول وأضاء الكشاف. بمجرد أن بدأ الاثنان في نزول أولى درجات السلم سمعا صوت الشيخ يأتيهما من بعيد قائلًا:

- اللي هاتشوفه الليلة هايتحدد على أساسه مصير حياتك، وإنت عاقل.. بلاش تختار غلط.

توقف «هشام» للحظة وابتسم دون أن ينظر وراءه، ثم أكمل هبوط درجات السلم.

خرجا من نفس المدخل الذي دخلا منه، سارا - دون أن يتكلم أحدهما لدقائق قليلة- وسط الجبال والحواف الصخرية التي تنذر بالانزلاق من يقترب منها أكثر من اللازم. وصلا إلى منطقة صخرية تمامًا، فتوقف «شريف» وهو يقول:

- أهلًا بيك في «وادي المستضعفين».

تأمل «هشام» المكان الصامت المظلم من حوله وقال:

- إنت بتهزر! مستضعفين إيه؟

- بتكلم بجد، المنطقة دي كلها اسمها القديم «وادي المستضعفين»، ومتسألنيش عن سبب التسمية، فكر في السبب زي ما تحب وانت جوه الخلوة.

- وهي فين الخلوة دي؟

أشار «شريف» لبروز صخري يخرج من هضبة أمامهما، وقال:

- آدي باب الخلوة أهو.

تأمل «هشام» في البروز الصخري فلم ير أي باب.

- متقوليش يا «شريف» إنك هاتقول افتح يا سمسم والجو دا!

- بالظبط يا صاحبي.

قال «شريف» عبارته وهو ينظر لأعلى ويقول:

- «بسم الله الذي له اسم لا يُنسى، ونور لا يُطفأ، وعرش لا يُحول، ومُلك لا يزول، وكرسي لا يتحرك، أعذني على سيد وادي المستضعفين بألا يتعرض لي أو لخدمتي، أقسمت عليك يا سيد ميطرون يا ملك الأشباح والأرياح التي تحت عرض الملك الجبار، بحق الاسم المكتوب بالنور على عربة الطاعة التي اختصك بها الله فأطاع لك الأرواح والأشباح، أن تأمر رحميائيل بالنزول على سيد هذا الوادي وزجره هو وخدمه على قضاء حاجتي، وفتح باب خلوتي، بقسم الأسماء المكتوبة على حرم سليمان في الهيكل القديم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم».

اهتزت الأرض من تحت أقدام «هشام» الذي نظر حوله بخوف ليلاحظ فجأة أن البروز الصخري يُفتح للداخل.

أخرج «شريف» مسبحته وهو يقول:

- أنا هاسيب الخدمة بتاعتي هنا عقبال ما أوصلك لجوه وأرجع تاني.

ألقى مسبحته على الأرض بعدم اكتراث ودخل من الباب المفتوح المظلم و«هشام» يمد بخطواته ليلحقه وهو يحاول في نفس الوقت السيطرة على مثانته كي لا تخونه من الرعب.

دخلا للظلام، لكن كشاف الهاتف المحمول الخاص بشريف أضاء له الطريق للداخل. كانت المغارة أضيق مما تخيلها «هشام»، عبارة عن ممر قصير يتكون من بضعة أمتار، يمتلئ بكتابات لم يستطع قراءتها بسبب الخوف وعدم توفر الإضاءة الكافية. عند نهاية الممر منحدَر يميل لأسفل بزاوية 45 درجة، لكن قبل النزول للمنحدر استطاع قراءة آية قرآنية محفورة بطريقة بارزة قبل المنحدر:

«لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد».

نزل «شريف» المنحدَر وهو يقول بصوتٍ عالٍ:

- أنا «شريف الجندي»، كنت عندكم من 3 سنين واتعرفت على خدمتي هنا، خدمتي من قبيلة «بنو الجندب» ورئيسهم اسمه «ابن زوعير». معايا صاحبي «هشام» هايقعد معاكم ليلة.

نزل «هشام» وراءه المنحدَر، لكن «شريف» توقف وأشار لهشام هو الآخر بالتوقف وقال صارخًا:

- صاحبي عايز يقضي ليلة معاكم يعرف عنكم أكتر، أنا هاستناه بره الخلوة، لكن طالب منكم الأمان، لا أذية ليه ولا خوف.

لم يحدث شيء، فقال «شريف» بنفس الصوت العالي:

- ادوني علامة الحماية بتاعت الخلوة.

لم يحدث أي شيء. نظر «شريف» للأرض بخيبة أمل وهو يتنهد و«هشام» يحمد الله داخله أن الموضوع فيما يبدو في طريقه للفشل لكن فجأة أضيئت المغارة بضوء أخضر جعل «هشام» يشهق فزعًا، ضوء لا مصدر مرئي له، أظهر لهشام أنه يقف عند منحدرَ نهايته ساحة مربعة تتدلى الصخور عليها في شكل رؤوس مدببة، وعلى أرض الساحة عشر زجاجات من الماء ممتلئة، وصندوق خشبي وسجادة صلاة مطوية.

ابتسم «شريف» وهو يدخل لتلك الساحة الصغيرة ويقول:

- الحمد لله كدا إنت في الأمان. بص يا سيدي.. المفروض كنا نجيب أكلك وشربك اللي هايكفيك الأيام الجاية لو هاتعمل خلوة، بس إنت كدا كدا هاتقعد كام ساعة، علشان كدا هاتلاقي المية اللي هاتشرب منها وتتوضى لو تحب. والصندوق دا فيه عيش ناشف ومكسرات كتير ممكن تاكل منهم لو جعت، ودي المصلية لو نويت تتوب يا أسطى.

- إنت هاتسبني دلوقت؟

- متقلقش، أنا هاقعد بره بـ100 متر أتابعك، وانت الوقت اللي تحب تخرج فيه مش هاتعمل حاجة إلا إنك تقرب من باب الخروج هاتلاقيه بيتفتح لوحده.

- طب هو أنا المفروض أعمل حاجة معينة؟

وضع «شريف» هاتفه المحمول في جيبه وقال مبتسمًا:

- المفروض أسيبك هنا وبس، لكن أنا هافتح ليك الخلوة الحقيقية، علشان تشوف وتسمع. المكان هنا عامل زي مطار دولي، كل الطيارات من مطارات العالم بتنزل فيه ترانزيت، وأنا دلوقت هاعملك فتح رؤيا علشان تقدر تتواصل مع أي جن بيمر بالمكان دا.

- وهما بيمروا هنا ليه؟ المغارة ضيقة جدًا.

- لا المغارة أكبر من اللي إنت ممكن تتخيله، هي لسة ممتدة جوه الجبل، بس عمرها ما بتتفتح، وبصراحة الشيخ مقاليش بقية المغارة جواها إيه وإزاي بندخلها، دا مكان الخلوة علشان نكتسب خدمة جن وبس.

خطا «هشام» بحذر لداخل الساحة وهو يقول:

- والنور الأخضر دا جاي منين؟

- بلاش تعرف تفاصيل هاتخوفك وبس، إنت تقعد ترتاح دلوقت

وأنا هافتحلك الرؤيا وأسيبك، وانت أول ما تحب تخرج إن شاء الله بعد دقيقة واحدة اتكل على الله واخرج.

أنهى عبارته وأغمض عينيه وهو يرفع يده اليمنى عاليًا، وهو يقول صارخًا:

- «سبوح سبوح رب الملائكة والروح، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، افتحوا الباب بيننا وبينكم بالمحبة والطاعة والصلاح، على من جلس بهذا المجلس أن يتحدث بحديث البشر، ويفهم بفهمهم، ويدرك بعقلهم، ويجيب دعواتنا بلطف وصفاء. بسم الله الرحمن الرحيم، أينما تكونوا يأت بكم الله جميعًا إن الله على كل شيء قدير. أسرعوا بأنواركم البهية وشهبكم السنية وهممكم العلية. لا زلتم مقربين وبنور الجلال متحوفين ومن مكر البشر آمنين. آمين آمين آمين».

احمرّت يد «شريف» المرفوعة والتي هوى بها هذا الأخير يضرب بها أرض الساحة بجانب «هشام» الذي تراجع خطوة للوراء غير مصدق ما رآه بيد صديقه. ابتسم «شريف» وأعطى ظهره لـ«هشام» صاعدًا المنحدر وهو يقول:

- أنا مستنيك بره يا صاحبي، اللي إنت بتحلم بيه بيحصل دلوقت، على قد ما تقدر استفيد منه. سلام.

اختفى «شريف» من عين «هشام» الذي طرأ على رأسه خاطر؛ كيف سيتنفس إن انغلق باب المغارة عليه؟ سمع صوت الباب

الصخري يُغلق، والأرض تهتز من تحت قدميه. قدّر أن هناك فتحات ما للتنفس لم يرها.

سمع صوتًا لأقدام تتحرك أعلى المنحدر، فقال بشك:

- «شريف».. إنت لسه مخرجتش؟؟؟؟

لم يجبه «شريف»، بل سمع صوت الأقدام تقترب من المنحدر أكثر. صوت فحيح يقترب من فحيح الأفاعي يسمعه. رأى من أعلى المنحدر طرفًا لرأسٍ أسود اللون يطل عليه كأنه يراقبه بحذر.

***

(3)

الساعة تقترب من الرابعة فجرًا أمام المغارة المغلقة الصامتة. من يقف بعيدًا ليرى المشهد سيصاب بصدمة شديدة؛ فبجانب المغارة بمئة متر جلس «شريف» على الأرض مستندًا بظهره إلى تبة صخرية صغيرة، مغمضًا عينيه وغارقًا في سبات طويل. صدمة من ير هذا المشهد ليست في نوم «شريف»، بل من يحيطون به، خمسة أنفار من الجن قصار القامة، لا شعر في أجسادهم، رؤوسهم متضخمة وأيديهم طويلة بثلاثة أصابع، وعين كل منهم سوداء تمامًا، لا يتحركون كأنهم تماثيل منحوتة على أوضاع خاصة؛ فأحدهم يمسك ثعبانًا صغير الحجم ويرفعه بيده للأعلى، والثعبان يتلوى بعنف. واثنان، أحدهما يمسك بعقرب ضخم يتحرك بيأس ليفلت من تلك اليد، والآخر يقبض على عقرب صغير الحجم استسلم له وأصبح هادئًا.

سعل «شريف» أثناء نومه جراء الهواء البارد الذي تسرب لرئتيه طوال فترة نومه ففتح عينيه بتثاقل وهو ينظر حوله لخدامه من الجن ويقول بتكاسل:

- هو أنا نمت كتير؟

سمع صوتًا في أذنيه يتحدث، فقال:

- طب ارموا العقارب والتعبان دا بعيد عن هنا، أنا صحيت خلاص.

اختفى الجن من حوله، وألقيت الهوام بعيدًا في الهواء، بينما ثنى «شريف» جسده للأمام قليلًا وهو ينظر في اتجاه مسجد «شاهين الخلوتي»، وقال:

- تفتكر الشيخ لسه هناك لحد دلوقت؟

استمع لرجل من خدمته يحدثه في أذنه ثم قال:

- حاسس كإنه باصص عليا دلوقت من مكانه.. بيراقبني.

نظر لساعة يده قائلًا:

- غريبة إن «هشام» اتأخر كل دا جوه!

سمع الصوت في أذنه فرد عليه قائلًا:

- أيوة أنا كنت عايز «هشام» يدخل الخلوة، ونفسي يبقى معاه خدمة من الجان، علشان ياخد حقه من اللي ضيعه هو وأخته. تعرف إني كنت معجب بـ«ريم» أخته من زمان، بس صعب أظهر في الصورة دلوقت. «ريم» حمل تقيل على اللي هايرتبط بيها، وأنا ممنوع أستخدمكم في الأذى فمش هاقدر أجيب حقها. وجودي هايكون زي عدمه.

شعر باهتزاز الأرض من تحته فنهض وهو يقول:

- «هشام» خارج خلاص، شكله مقدرش يتواصل مع جن علشان يخدمه.

نهض من رقدته وهو يشاهد من بعيد الباب الضخري يُفتح لداخل المغارة، و«هشام» يخرج منها متصلب الأطراف ينظر حوله، حتى وقعت عيناه على «شريف» الذي لوّح له. قال «هشام» بصوتٍ عالٍ:

- متقربش مني يا «شريف».

كاد «شريف» يتحرك، لكنه توقف مذهولًا من تلك العبارة. نظر لجانبه الأيسر لمحدثه من الجن يقول:

- مال «هشام»؟

جاءه الصوت في أذنيه من خدمته يقولون إنهم محجوبون، لا يرون شيئًا. نظر «شريف» لـ«هشام» وبدأ يلاحظه لأول مرة، لقد امتلأ قوة وثباتًا وهيبة. رفع «شريف» صوته قائلًا:

- مالك يا ابني؟؟ إيه اللي حصل جوه؟

- بكرة نتكلم، أنا عارف طريقي من هنا. سلام.

قالها «هشام» بصوتٍ بارد تتخلله قوة، ثم اتجه للظلام واختفى. قال «شريف» في نفسه إنه ولا بد قد اكتسب خدمًا من الجن، لكن أي خدم هؤلاء الذين استطاعوا حجب الرؤية عن خدمه هو شخصيًا؟

شعر باهتزازة أخرى في الأرض فنظر لباب المغارة ليجده يُغلق من تلقاء نفسه، كان يجب أن يغلقه بعزيمة أخرى يقرأها أمامه، كيف أغلق من تلقاء نفسه بهذه الطريقة؟!

***

استيقظت «ريم» من نومها صباحًا على رائحة غريبة، ليست رائحة غاز البوتجاز، بل أقل حدة، لكنها خانقة برغم كل شيء.
نهضت من على الفراش تحاول تتبع الرائحة. خرجت إلى صالة الشقة فوجدت والدتها تجلس أمام التلفزيون وهي تقشر حبة بطاطس.

- صباح الخير يا «ريم»، انتي شامة حاجة غريبة يا بنتي ولا أنا مناخيري باظت؟

قالت الأم العبارة السابقة وهي تنظر لـ«ريم» التي قالت مندهشة:

- أنا صاحية على الريحة دي، طب انتي اتأكدتي إنها مش من المطبخ؟

- الريحة في الشقة بس مش عارفة أحدد جاية منين، ساعات بحس إنها راحت وساعات ألاقيها رجعت.

- طب هو «هشام» نزل الكلية النهارده ولا لسة جوه؟

- المفروض كان ينزل النهارده، بس دخلت عليه من ساعة لقيته قاعد مسهم وسرحان في أوضته.

اتجهت «ريم» لغرفة نوم شقيقها، وطرقت باب الغرفة فلم يجبها أحد. طرقت مرة ثانية وثالثة حتى قالت:

- أنا داخلة يا «هشام».

فتحت الباب لتجد شقيقها واقفًا أمام النافذة ينظر خصاصها إلى

الشارع. شعرت أن مصدر الرائحة هي هذه الغرفة، لأنها أصبحت أوضح وأكثر نفاذًا.

- إنت مش رايح الكلية النهارده؟

نظر لها «هشام» ببطء. فكرت أنه تغير فجأة، كأنه شخص آخر، نظراته أصبحت أكثر برودة وتحديًا و.. وغضبًا. عاود للنظر لخصاص النافذة وقال بصوتٍ جهوري:

- هو «النونو» مش قاعد قدام بيتهم ليه زي كل يوم؟

تراجعت هي خطوة للوراء مندهشة، فهو لم يذكر اسمه ولا مرة منذ ما حدث معها. الاثنان يتجنبان الحديث عن هذا الشخص، فما الذي كسر تلك القاعدة الآن؟

- ما لك يا «هشام»؟ إنت فيه حاجة مضايقاك؟

قالتها وهي تقترب منه فقال هو دون أن ينظر لها:

- أنا حاسس باللي انتي فيه، متقلقيش كل حاجة هاتتحل.

أنهى عبارته وغادر الغرفة دون كلمة، حتى أنها وقفت تشاهده وهو يعبر الصالة ويخرج من الشقة دون حتى أن تمتلك فرصة لرد الفعل، لكنها جرت تقف خلف النافذة، وجدته يخرج من باب المنزل ويتوقف عند البقالة القريبة من المنزل ويتكلم مع صاحبها الذي ظهرت عليه ملامح الدهشة وهو يشير بيده ناحية منزل «النونو».

هل يسأله «هشام» عن سبب عدم تواجد «النونو» في هذا التوقيت؟ نظر «هشام» للمنزل لفترة ببرود، ثم عاد للمنزل ثانية.

ثوانٍ وسمعت صوت المفتاح يدخل مزلاج باب الشقة، ويدخل

«هشام» بنفس الهدوء الغريب ويعود للغرفة ويقف أمام النافذة.

- «هشام».. أنا بدأت أخاف، إنت عايز تعمل إيه؟

كأنه لم يسمع سؤالها وهو يقول بهدوء:

- «التوتو» بايت بره بيته من إمبارح، أكيد هايرجع النهارده.

غادرت «ريم» الغرفة وأغلقتها خلفها، ولم تتخلص بعد من حالة الصدمة.

***

داخل ميكروباص، جلس «شريف» على المقعد المجاور للسائق وهو يتصل للمرة العاشرة بهشام الذي يرفض الإجابة على هاتفه المحمول. ما الذي حدث له أمس داخل الخلوة جعله يرفض أن يغادرا جبل المقطم معًا؟ ولماذا لا يرد على هاتفه منذ صباح هذا اليوم؟ هل اكتسب خدمة من الجن أخبرته شيئًا عن «شريف»؟ هل عرف مثلًا أن هذا الأخير يكن الإعجاب لـ«ريم»؟

هذا الخاطر هو ما أقلقه، لذلك عندما فشل في الوصول إليه عن طريق الهاتف قرر الذهاب لمنزله. نظر لساعة يده فوجدها تخطت الواحدة ظهرًا بقليل. كاد يحاول الاتصال به مرة أخيرة يائسة، لكن جاءه اتصال من هاتف والدة «هشام» المحمول، فهي تحتفظ برقم هاتفه منذ زمن طويل. رد على الهاتف فلم يأتِه الصوت الذي توقعه، بل جاءه صوت «ريم» تتكلم بصوتٍ خافت جدًا.

- «شريف».. أنا «ريم».

- إزيك؟ مال صوتك واطي كدا ليه؟

- أنا بتكلم من أوضتي علشان محدش يسمعني، ممكن أسألك سؤال؟

- خير؟

- هو إيه اللي حصل إمبارح؟

بدأ القلق يداعب قلبه وهو يحاول أن يبدو طبيعيًا ويجيبها:

- مش فاهم سؤالك!

- إنت و«هشام» خرجتوا إمبارح بالليل، والنهارده «هشام» بيتعامل بشكل غريب. بيسأل أسئلة عمره ما سألها، وبصات غريبة، حتى ريحة الأوضة بتاعته غريبة كـ...

قاطعها هنا وهو يقول متلهفًا:

- إيه حكاية الريحة دي؟

- مش عارفة! من ساعة ما صحيت وأنا شامة ريحة غريبة، ولما دخلت أوضته لقيت الريحة قوية، كأنها ريحة كبريت.

استغرق لحظات كأنه يتذكر شيئًا ما، شهق بعدها واتسعت عيناه وهو يطلب من سائق الميكروباص التوقف بسرعة، وحتى قبل أن يتوقف قفز هو من الميكروباص وهو يعبر الطريق ويقول لـ «ريم» بعصبية:

- أنا جاي عليكم حالًا، بس بلاش تتعاملي مع «هشام» مؤقتًا لحد ما أوصلكم.

أغلق المكالمة وهو يوقف «تاكسي» ويطلب منه أن يوصله لأقرب نقطة من جبل المقطم يستطيع من عندها الصعود لمسجد «شاهين الخلوتي».

***

رائحة الكبريت تزداد في الشقة، ومعها يزداد قلق «ريم» أكثر فأكثر وهي جالسة في غرفتها. فكرت في «هشام» وفيما سيقحم نفسه فيه لو أعاد العراك مع «النونو». لمست بيدها أعلى صدرها تتحسس الجرح القديم الذي ما زال ظاهرًا بعد خياطته. لا مال كافٍ لإجراء عمليات تجميل الآن، وفي كل الأحوال لا توجد جراحات تجميل لجروح القهر والذل.

مع الوقت شعرت أنها اعتادت تلك الرائحة، فكرت في ذلك وهي تفتح باب غرفتها وتتجه للحمام، قبل أن تصل لباب الحمام وجدته مفتوحًا ومضاءً، وداخله يقف «هشام» أمام مرآة الحمام معطيًا ظهره له. عرفته من ظهره، لكنها توقفت غير مدركة لما تراه في مرآة الحمام نفسها، بدلًا من إنعكاس صورة شقيقها الذي تعرفه وجدت انعكاسًا لكائن أصفر اللون بالكامل، وجهه يشبه وجه الخنزير المجعد، وجلد جسده محروق تبرز منه عروق ضخمة، ومن خلفه يظهر ذيل لهذا الكائن يتراقص يمينًا ويسارًا.

كتمت صرختها بيدها و«هشام» يستدير لها، ثم ينظر بطرف عينيه في المرآة، ويعاود النظر إليها مبتسمًا.

***

بعدما وصل «شريف» لمسجد «شاهين الخلوتي» قدّر أن شيخه لن يتواجد الآن في مكانه. جرى مهرولًا إلى موضع الخلوة حتى وصلها. فرك عينيه وهو يتأكد من باب المغارة الصخري، ما الذي فتحه؟ وفي هذا التوقيت؟ دخل المغارة بحذر يتلفت حوله في الممر. هبط المنحدّر داخل المغارة متوقعًا أن يرى ساحة الخلوة، لكنه وجد شيئًا جديدًا، أحد حوائط الساحة غير موجود. لا ضوء الآن في المغارة إلا من خلال شعاع صغير من الشمس يأتي من الخارج، لكنه كان كافيًا ليرى أن تلك الفتحة تؤدي لممر آخر.

أخرج هاتفه المحمول وطلب رقم هاتف «هشام». سمع رنين الهاتف يأتي من ناحية الممر، خطا لداخله يقدم قدمًا ويؤخر الأخرى. بدا أن نهاية الممر عبارة عن ظلام تام يتخلله القليل من الضوء. خُيِّل إليه أن رجلًا يقف وسط ذلك الظلام. سمع صوت الرجل يتحدث.

- كنت عايز «هشام» يبقى معاه خدمة علشان ينتقم من اللي أذاه هو وأخته.. قلت لك خليه يقعد في المغارة بس لكن ما تفتحلوش الرؤيا، لكن شهوتك اتحكمت فيك، شهوة القوة.

صُعق «شريف» من صوت ذلك الرجل، إنه الشيخ الذي أكمل قائلًا:

- إنت سبت السبحة بتاعتك قدامه علشان يستخدمها وخدمة الجن بتاعتك تكلمه، علشان تحفزه إنه يدخل عالم الجن زيك.

اقترب «شريف» أكثر من الشيخ فوجد أن هناك ساحة أخرى وراءه ومضاءة بضوء أخضر خافت، قال «شريف»:

- اخت «هشام» بتقول إنها بتشم ريحة الكبريت، مش ممكن تكون الأسطورة حقيقة؟

- أنا حذرتكم من إن المغارة مليانة بالأسرار، ومنها «خادم وادي المستضعفين» اللي حبسه «طاهر بن ميمون» جوه المغارة، و«هشام» إمبارح قدر يتواصل معاه ويفتح باب زلزالته.

ابتعد الشيخ جانبًا بحركة مسرحية لتظهر جثة ملقاة على الأرض من ورائه، وبركة كبيرة من الدماء تحيط بها. دقق «شريف» في الجثة وهو يقترب منها ويجثو على ركبته، لكنه انتفض في موضعه وهو يرى جثة صديقه «هشام».

***

- أنا مش «هشام» يا «ريم».. عايزك متخافيش مني، أنا هنا علشانك.

قالها «هشام» وهو يخرج من الحمام و«ريم» تتراجع بظهرها إلى الصالة، وتشير بيدها اليسرى إليه وهي لا تقوى على الكلام، وعيناها تدمعان من الخوف. خرجت الأم من المطبخ فنظرت إلى «ريم» متسائلة، لكن «هشام» ببرود ذهب لأمه ووضع يده اليمنى على رأسها فأغشي عليها.

جرت «ريم» لغرفة «هشام»، لكنها فوجئت بـ«هشام» نفسه وصل لغرفته قبل أن تدخلها. كادت تصطدم به لكنه مد يده اليمنى يلمس رأسها، فتكومت هي الأخرى على الأرض وهو يقول بحزن:

- أنا آسف.

ذهب ليقف عند النافذة بهدوء يراقب الشارع.

***

جثة «هشام» العارية الملقاة مثيرة للرعب والشفقة لمن يراها، عيناه مغمضتان كأنه نائم بسلام، برغم وجهه أزرق اللون من قلة الدماء. هبطت دموع «شريف» على الجثة وصوت الشيخ يتردد من خلفه قائلًا:

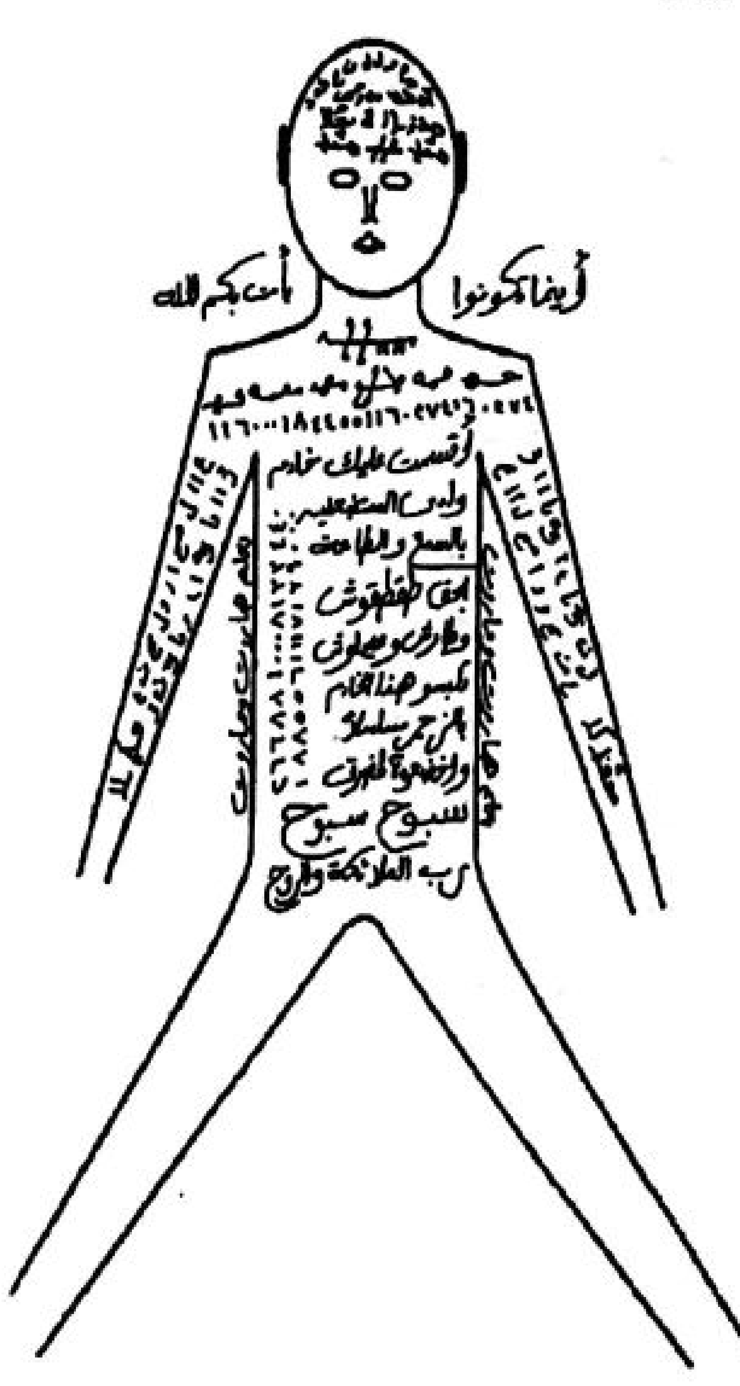
- «هشام» قدر يتواصل إمبارح مع «خادم وادي المستضعفين» ويوصل لسجنه، والسر اللي مش كتير عارفينه إن تحرير الخادم دا محتاج دم كتير أوي، أكتر من اللي جسم بشري واحد يتحمله. طريقة موت «هشام» بتقول إنه منتحرش علشان يحرر الخادم، هو حاول يساعده بدمه، لحد ما جاله هبوط ومقدرش يوقف نزيف الشريان اللي فتحه بنفسه.

نظر «شريف» من وسط دموعه إلى يد «هشام» اليمنى فوجد فتحتين عند شريانين. تحرك بعينيه في أرض الغرفة فوجد أن الأرض منحوتة بطريقة بارزة على هيئة أشكال هندسية، ووسط تلك البروزات الهندسية بقايا دماء «هشام» التي أسالها لتصل إلى نهاية الساحة. في تلك البقعة العديد من السلاسل البيضاء المنقوش عليها طلاسم باللون الأسود، تتصل أطراف تلك السلاسل بالنقوش البارزة في الأرض، والطرف الآخر مدمَّر حيث كان يقف الخادم. نظر «شريف» للشيخ وتجهم وجهه فجأة وهو يقول بصوتٍ مخنوق:

- كنت بتقول لنا زمان إن الخادم دا مش حقيقي وإنها حكاية عن مارد من الجن أقوى من كل خدامنا، علامة وجوده في مكان

هي ريحة الكبريت، المارد دا موجود دلوقت في بيت «هشام».

أخرج الشيخ من جيبه قلم حبر من النوع الذي يُملأ من الدواة، وأعطاه لشريف، ثم أخرج ورقة صغيرة مطوية من جيبه، فضَّها ووضعها في يد «شريف» الذي مسح بقايا دموعه وهو يدقق فيها، رسمة غير دقيقة لإنسان وحوله امتلأت طلاسم وأقسام وأرقام وكلمات سريانية.



- كل اللي علمتهولك يا «شريف» او علمته لغيرك مش هايقدر يخليك تتغلب على المارد دا، الطلسم دا هو الوحيد اللي ورثته من شيوخي علشان لو اتحرر في يوم من الأيام ممكن السيطرة عليه.

- سيطرة عليه بس؟

- محدش قبل كدا قدر يعرف طريقة لقتله، الحل الوحيد إنك تسحب دم بالقلم اللي معاك دا وترسم الطلسم على ورقة، ولما تحرق الورقة هايبقى قدامك دقايق هايكون فيها ضعيف تقدر تخلي خدمتك من الجن تنقله المغارة هنا تاني، وأنا هاستناهم علشان نرجع نسجنه.

- بس هاعرف مكانه إزاي لما يضعف؟

- لازم تكون شايفه قدامك لأن مفيش جن بيشوفه وهو في كامل قوته.

نظر «شريف» لجثة صديقه، ثم رفع القلم وهو يقرِّبه من يده، إلا أن الشيخ قال وهو يغادر الساحة:

- إمبارح بعد ما قعدت معاك إنت و«هشام» أنا قلت كلمة وانتوا ماشيين، بس إنت افتكرتني بكلم صاحبك، بس الكلام كان ليك إنت.

عقد «شريف» حاجبيه محاولًا التذكر، لكن الشيخ قال له مذكرًا وهو يسير مبتعدًا:

- قلت: «اللي هاتشوفه الليلة هايتحدد على أساسه مصير حياتك، وإنت عاقل، بلاش تختار غلط». أتمنى وقت الاختيار الحقيقي يا

«شريف» إنك تختار صح، الاختبار دا بتاعك مش بتاع «هشام».

***

وقف «هشام» أمام النافذة ينظر بين خصاص النافذة على الشارع حتى رأى «شريف» يأتي مهرولًا ليدخل باب المنزل، رفع «هشام» يده للأعلى قليلًا وهو يشير ناحية باب الشقة الذي انفتح مزلاجه من تلقاء نفسه. بعد ثوانٍ دخل «شريف» الشقة مرتبكًا وهو يحمل قداحته وورقة بيضاء كبيرة مطوية. دخل للصالة ينظر حوله حتى رأى «هشام» يقف في غرفة النوم معطيًا ظهره له. رفع الورقة للأعلى قليلًا وكاد يشعل القداحة لكن توقف وهو يقول:

- إنت أغرب حد من الجن أشوفه.

لم يلتفت «هشام» له، لكنه قال:

- «هشام» كان عارف إنك بتحب «ريم»، وإنك ساعدته يدخل المغارة علشان ينتقم لنفسه.

فتح «شريف» فمه مندهشًا و«هشام» يكمل كلامه قائلًا:

- وكان نفسه تخلي بالك على أخته وأمه لو حصل له حاجة.

- إنت إيه اللي جابك هنا؟ مهربتش ليه؟

التفت له «هشام» وقال ببرود:

- إنت من جماعة «طاهر بن ميمون».. صح؟

عاد «شريف» لرفع الورقة للأعلى وتقريب القداحة منها. نظر «هشام» للورقة وقال:

- لو عايز تخليني في أضعف حالاتي يبقى تستنى لحد ما أعمل اللي زيك خاف يعمله.

- إنت هاتعمل إيه؟

- اللي إنت كان نفسك تعمله، «هشام» امبارح وصل لي وقعد يتكلم معايا، حكى لي كل حاجة، وفي الآخر وافق إنه يحررني من غير شرط. لكنه مات قبل ما يفك أسري وألحقه، وحقه عليا إني أرجع له كرامته قدام المكان اللي عاش فيه.

- إنت هاتقتل «التونو»؟

ابتسم «هشام» وقال:

- أنا مقلتش إني هاقتله، لكن إنت نِفسك في دا، تحب أحقق لك كل أحلامك؟

- أحلامي؟

- جماعة «بن ميمون» طول الوقت في اختبارات وخلوات وروحانيات، فاكرين إنكم بتحققوا العدل في العالم، لحد ما نسيتوا المعنى الحقيقي للعدل، إنه مفهوم الهي، والظلم مفهوم الجن والبشر، لازم يقع ظلم على طرف من الأطراف في الدنيا علشان يتحقق العدل، أما اللي إنت بتحلم بيه دا يتحقق في الآخرة.

- نفس كلام «هشام».

- اتعلمت كتير منه إمبارح في الكام ساعة اللي قعدتهم معاه. آن

الأوان إنك تفكر في كلامه مرة تانية.. يا ترى عايزني أرجع السجن تاني؟ ولا أكون معاك نطبق العدل في الدنيا من جديد؟

صمتٌ تام غمر الشقة لدقيقة، و«شريف» يفكر فيما يُقال، هل كل هذا اختبار له من شيخه؟ هل حقًا يرغب في تكملة مسيرته معه؟ أم يستخدم قوته الحقيقية في رد المظالم؟ فجأة رد ليتوقف هو عن التفكير:

- أنا هاسيبك تعمل اللي إنت جاي علشانه، لكن بعدها هاحرق الورقة وهارجعك سجنك.

- أنا أقدر أكسر رقبتك دلوقت قبل ما تفكر تحرق الورقة، لكن أنا موافق أرجع سجني تاني بعد ما أخلص اللي أنا جاي علشانه، هاسيب ليك الاختيار، يا نبقى مع بعض يا إما ترجعني مغارة «وادي المستضعفين».

عاد «هشام» للنظر من خصاص النافذة للشارع وهو يقول:

- «ريم» وأمها نايمين في أوض نومهم، لإنهم مستحملوش يشوفوا شكلي الحقيقي. أنا بطمنك علشان متفكرش فيهم كتير.

- إنت ليه لقبك «خادم وادي المستضعفين»؟

- علشان زمان أوي من قبل التاريخ المستضعفين كانوا يحضروا في الوادي يشتكوا من ظلم وقع عليهم ويطلبوا مني العدل.

- تقصد يطلبوا منك توقع الظلم على اللي ظلموهم.

- وهو دا اللي إنت مؤمن بيه يا «شريف»، بس خايف تعترف لنفسك بكدا.

عاد «هشام» لينظر لشريف ويبتسم قائلًا:

- «النونو» رجع من بدري بيته ودخل ينام، أنا مرضتش أبدا إلا لما إنت تيجي، علشان تتفرج وتفش غليلك. لما أرجّع حق «هشام» في نفس المكان اللي اتاخد منه هايبقى قدامك فرصة إنك تحرق الورقة اللي معاك وتبعت خدمتك تسحبني للمغارة.. سلام يا «شريف».

وكأن أرض غرفة النوم من الماء؛ سقط فيها «هشام» واختفى عن نظره. جرى «شريف» ليقف عند النافذة فشاهد «هشام» يخرج من باب المنزل بشكل طبيعي، ويسير مختالًا بين الناس في الشارع وهو يدخل منزل «النونو» وجميع المارة في الشارع ينظرون لبعضهم البعض في خوف.

***

حاول «النونو» النوم وهو يتقلب على فراشه بقلق، فجأة سمع صوت فرقعة عالية تاتي من صالة الشقة، قفز من على فراشه لكن ما كادت قدماه تلمسان أرض غرفته إلا وباب الغرفة يتهشم لقطع صغيرة كأنه انفجر بالبارود، والشظايا الخشبية تتطاير في أنحاء الغرفة وبعضها يصطدم به.

دخل «هشام» الغرفة بثبات وهو ينظر له مبتسمًا ببرود. ردة فعل «النونو» كانت أسرع من إدراكه هو شخصيًا، فقد وجد نفسه يسحب مطواته من تحت وسادة نومه ويصل لهشام بقفزة واحدة وهو يغرس نصل المطواة في كتفه.

رفع «هشام» يده اليسرى وأمسك برقبة «النونو» الذي فشل في تحمل قوة تلك القبضة. قرّبه «هشام» منه وقال بصوتٍ خافت:

- هششششش.. كلام في سرك أنا مبموتش بالطريقة دي، بس اوعى تقول للناس اللي برا.

أنهى عبارته وهو ينتزع المطواة ببساطة من كتفه بيده اليمنى أمام عيني «النونو» الجاحظتين.

- ولو هاموّت أكيد مش هايقتلني واحد نونو.

ألقاه بيد واحدة ليصطدم بمرآة متهالكة في طرف غرفة النوم، لكن «النونو» تفادى الاصطدام بها وهو ينظر لهشام بفزع، حتى قال هذا الأخير:

- مش عارف أعمل فيك إيه! الاختيارات قدامي كتيرة لدرجة إني متلخبط، بس خليني أقول لك على سر تاني متقولش لحد عليه.. أنا مش «هشام».

قالها ووجهه يتضخم وفمه يستطيل حتى أصبح كوجه الخنزير بلون أصفر فاقع وعيون غائرة، تكلم بصوت له رنين مخيف لا يمت لصوت «هشام» بصلة وقال:

- طبعًا أي حاجة هاعملها فيك مش هاتكون هنا.

صرخ «النونو» وهو يعود بجسده للوراء ويرفع يده عاليًا، والكائن يقترب منه.

***

فتح «شريف» مُلف النافذة ليرى بشكل أوضح غير عابئ بمن يمكن أن يشاهده. أهل المنطقة نفسهم لم يُلقوا له بالًا لأنهم سمعوا كما سمع أصوات تحطم الأبواب في منزل «النونو»، لكن أحدًا منهم لم يجرؤ على دخول المنزل، اكتفوا فقط بالحسرة على «هشام» الذي يضربه «النونو» الآن، على الأرجح ككل مرة.

لكنهم صرخوا من الصدمة و«النونو» يُلقى به من داخل باب المنزل إلى الشارع عاريًا كما ولدته أمه، وعلى وجهه جروح كثيرة تناثرت منها الدماء.

ابتعدوا عنه قليلًا وأمارات عدم التصديق ترتسم على وجوههم البائسة، محاولين تصديق أن هذا من فِعل «هشام» الذي خرج من باب المنزل ببرود شديد، ممسكًا مطواة «النونو» بيده اليمنى وهو يقترب منه.

صرخ «النونو» بمجرد أن شاهده وحاول الزحف على الأرض مبتعدًا عنه، لكن «هشام» اقترب أكثر ومرر نصل المطواة على مؤخرته العارية ليُحدِث بها جروح غائرةً تناثرت الدماء على إثرها لتغرق أرض الشارع.

حاول أحد المارة التدخل والاقتراب من «هشام» لكن نظراته حملت رسالة واضحة للجميع؛ أنه لن يتورع عن فعل أي شيء.

صرخ «النونو» بحرقة وهو يحاول الزحف بأسرع ما يمكنه، لكن «هشام» أحدث به جروحًا أخرى في الظهر، جروح تؤدي للموت بسبب مواسير الدماء المنفجرة تلك. شعر بيد «هشام» تقبض

على ذراعه وتقلّب جسده ليصبح وجهه للأعلى. لم ينتظر ليعرف ما سيحدث لأنه شعر بالمطواة تخترق ذلك الجزء أسفل ذكورته، شهق لكن هذه المرة ليست ألمًا، بل من هول فكرة فقدان رجولته للأبد. النساء تصرخ والرجال يدارون أعينهم بأيديهم، و«النولو» قد استسلم لضربات المطواة الجديدة التي تشرح صدره ورقبته. لم يصرخ لأن جهازه العصبي أصيب بصدمة منذ قليل فلم يشعر بالألم، لكن الخوف ظل في عينيه بديلًا من الألم، لذلك أغمض عينيه وتمنى أن تنتهي القصة بأسرع ما يمكن. لكن «هشام» توقف وهو يلقي المطواة أرضًا وينظر للأعلى عند النافذة التي يقف عندها «شريف» ويبتسم له. بادله هذا الأخير النظر فقط وهو يشعل قداحة بيده ويتوارى بعيدًا عن النافذة.

ترك «هشام» الشارع ودخل منزله صاعدًا للشقة. وجد «شريف» يقف في وسط الصالة وقداحته مشتعلة والورقة بيده اليسرى بجانب النار لكنها لم تمسسها بعد.

- مش هايعيش، كام دقيقة وهايموت، أنا سبته علشان يعيش آخر لحظات حياته مشلول.

قال «هشام» العبارة فظهرت علامات الغضب على وجه «شريف» وهو يقول:

- إنت خرّجت أسوأ ما فيا.. خلتني أستمتع بكل اللي إنت عملته فيه.

- دا مش أسوأ ما فيك، دي حقيقتك وحقيقتنا كلنا جن وبشر، إحنا بس بنجملها.

- مش خايف أرجّعك سجنك تاني.

- دا اختيارك زي ما شيخك قال لك.

أغلق «شريف» القداحة قائلًا:

- مش هاسجنك دلوقت، عايزك تروح الأول للمعلم اللي كان مشغل «النونو» وتقتله هو ورجالته، وبعديها هاسجنك.

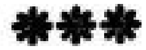
- إنت مش هاتسجني، إنت اخترت خلاص، ومش من دلوقت، من أول ما سبتني أنزل لـ«النونو»، إحنا بقينا في طريق واحد وهانكمل فيه للآخر، تحبني أظهر للمعلم بشكل «هشام» وأنا بقتله؟

لم يرد «شريف»، بل تصلّب وجهه على اللاتعبير. ابتسم «هشام» بسخرية وهو يغادر الشقة ويقول:

- أشوفك لما أرجع.

ألقى «شريف» القداحة والورقة على الأرض، مرت بضع ثوان ابتسم بعدها وهو يتنفس براحة شديدة، شاعرًا أنه عثر على ذاته أخيرًا.

تمت



ضريح
عمرو بن الجن

مقدمة الكاتب

في عـام 2009 لم تكـن كتبـي قـد حققـت انتشـارًا يُذكـر، وعلاقتـي بالوسـط الأدبي لم تكـن كمثـلِ هـذا الوقـتِ، لـذا كان لزامًـا علـيَّ أن أندهـش عندمـا عـدت لشـقتي يـوم 11 فبرايـر عـام 2009 ليـلًا لأجـد أن هنـاك طـردًا ينتظـرني، أخبرتنـي والـدتي أنهـا اسـتلمته مـن عـم (محمـد الفـولي) الـذي يعمـل بمكتـب البريـد القريـب مـن منزلنـا، والـذي يعلـم منزلنـا جيـدًا ويعـرف عائلتنـا فـردًا فـردًا منـذ ميلادنـا إلى اليـوم، جميـع الخطابـات التـي أتـت لمنـزل عائلتـي كانـت عـلى يديـه بدايـة مـن مراسـلات أقربائنـا في بعـض دول الخليـج العـربي في التسـعينيات مـن القـرن السـابق إلى إنـذارات الفصـل التـي أمطرتنـي بهـا مدرسـتي وأنـا في الثانويـة العامـة.

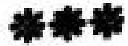
أمـا أن يصلنـي طـردًا باسـمي فهـذا غـير متوقـع، وخاصـة أن الطـرد قـادم مـن مكتـب بريـد مـكان يسـمى «القصر»، قبـل أن أفتـح الطـرد بحثـت عـلى الإنترنـت عـن هـذا المـكان فلـم أجـد مكتـب بريـد «القصر» -وقـت كتابـة هـذه السـطور اكتشـفت أن القريـة أنشـئ لهـا مكتـب بريـد- لكـن وجـدت أنهـا قريـة في الواحـات، مزقـت المظـروف فوجدتـه يحتـوي عـلى أوراقٍ كثـيرة مرقمـة مـن العـدد (1) إلى بقيـة الأعـداد عـلى طـرف كل ورقـة، حتـى خامـة الأوراق متباينـة فتجـد ثلاثـة أوراق

فلوسكاب تتبعها ورقة من كشكول ثم ورقة أخرى متباينة بحجم جديد وهكذا، كأن من كتبَ هذه الأوراق لم ينهِها في يومٍ واحدٍ، وقد كتبها شخصٌ يدعى (عصام) على هيئة رسالة طويلة، وهذا الشخص يخاطب المرسل له إليه بأريحية شديدة باعتبار أنه صديق عزيز له، وبرغم أن تلك الأوراق أرسلت على عنوان منزلي إلا أن (عصام) هذا كان يخاطب شخصًا آخر غيري باسم غير اسمي لكن بصفات تشبه صفاتي كأنه يعرفني جيدًّا!!!!

بجانب الورق وجدت ثلاث رسومات بيد مرتعشة، إحداها لمبنى مربع بقبة، واثنان لم أفهم المقصود منهما فهم أقرب للرسم الهندسي الميكانيكي.. قرأت الورق ولم أفهم وقتها أو بمعنى أدق لم أصدق ما فهمته وقررت البحث خلف تلك الأوراق، بعد أيام نسيت كل شيء عنها وأدركت أنني أفضِّل تجاهلها مؤقتًا، منذ عامين وجدت الأوراق أثناء تنظيف غرفة نومي القديمة وظللت في حيرة هل أنشره أم أتخلص منه في أقرب مقلب قمامة، أعتقد أنني قررت إرضاءً لضميري أن أعرضه لكم بعد حذف بعض العبارات وتغيير اسمين وبعض الصفات الشكلية التي وردت بالورق.. وإليكم نَص الورق الكامل بعد مراجعته لغويًا متمنيًا من الله أن تكون مزحةً من أحد أصدقائي في تلك الفترة.

القاهرة

2018



نَص الورق المرسل:

عزيزي/ حسين

تحية طيبة وبعد ..

ملحوظة: كما اتفقت معك أنني سأراسلك داخل الخطابات باسم «حسين» وإن كنت لا أعرفُ سببًا لذلك، لكن إن أرسلت الخطابات لمنزلك سأكتب اسمك الحقيقي على المظروف كي يصلك.

إعذرني لاستخدام كلمة «عزيزي» و «تحية طيبة» في الأعلى لأنني لم أرسل خطابًا بالبريد طوال حياتي القصيرة، لا أعرف ماذا يكتبون في البداية، لا أعرف حتى هل يُكتَب نَص الخطاب بالفصحى أم العامية، وحيث أنني أسمع تلك الكلمات يردّدُها أبطالَ الأفلام وهم يكتبون الخطابات فإنني أرسلها لك بكل سرور.. أعتقد أن «بكل سرور» سمعتها أيضًا في أحد الأفلام.. المهم، لقد وصلت اليوم لقرية «القصر» بالواحات الداخلة.

«سليمان» سائق التاكسي الذي أرسلته معي غريب الأطوار، كاد أن يفجر مرارتي عشرات المرات، آسف يا «حسين» لكن هذا الرجل مجنون فعلًا، ظل يتحدث عن إصابته بالبواسير بحماسٍ زائدٍ وكيف واجهَها بشجاعةٍ وحزمٍ، ورحلته مع اللبوس والمراهم حتى العمليات

الجراحية، خُيِّلَ إليّ أنه سيريني مؤخرته بفخرٍ ليثبت لي أنه مقاتل وعنيد ولم يقبل سوى بالأفضل لمؤخرته.

وإن توقف عن سرد حكايات البواسير فإنه ينتقل للحديث عن السيارات ويمطرني بمصطلحات تخص هندسة الميكانيكا من وجهة نظره، لا ينفك أن يتحدث عن (الخواجة) الذي صنع السيارة وعن ذكائه وحنكته لأنه جعل السيارة الفلانية «عضمها ناشف» كما أطلقَ عليها هو.. هل للسيارات عظام؟

ثم انتقل لحلمه الذي طالما حلم به، وهو أن يمتلك سيارة (ريجاتا) موديل 1986؛ لأن الخواجة الذي صنعها في هذه السنة ذو بالٍ رائق.

حاولت الهروب منه بالنوم لكن ذلك لم يفلح، هل تصدق أنه ظل يتحدث وأنا مغمض العينين وأتظاهر بالنوم؟! ثماني ساعات ونصف لم يتوقف عن الكلام لحظة واحدة.

عند اقترابنا من حدود القرية كما رأيت على الـ (gps) داخل هاتفي المحمول وجدتُني أصرخ في «سليمان» بأن يتوقف عن الحديث كي أتحدث في الهاتف، اتصلت بصديقك «رامي العريفي» الذي أوصيته عليّ على هاتفه المحمول، فأخبرني بأنه سينتظرني عند موقف سيارات الميكروباص في بداية القرية، توقف بي «سليمان» بجانب الموقف فقفزت مثل المجنون خارج التاكسي وأنا أصيح به أن يفتح حقيبة السيارة لأخرج حقائب سفري، فكرت أن أركل سيارته وأجري بحقائبي لكن تذكرت أنك تعرفه وتتعامل معه

فاكتفيت بالتلويح له بيدي مودعًا وهو يغادر القرية وأنا أصرخ قائلًا «ابقى طمّنا على بواسيرك».

انتظرت دقائق أراقب فيها الحركة المرورية حولي، أشعر أنني بالقرب من موقف الألف مسكن بالقاهرة، نفس الوجوه ونوعيات السيارات، الحقيقة أنني وقعت في الخطأ الذي طالما اتهمت به من حولي.. اعتقدت بأن أي مكان يقع خارج القاهرة والإسكندرية فإنه لا يمت للحضارة بصلة، أهله يتحدثون لغة غريبة، يرتدون ملابس من عصور سحيقة، لا يعرفون معنى للتلفزيون والإنترنت والهاتف المحمول.. وهذه المشكلة يعاني منها الكثيرين من القاهرين الذين يزورون الواحات كما عرفت فيما بعد من «رامي».

اقتربَتْ سيارة ذات دفع رباعي قديمة الموديل وتوقفت بجانبي، خرج منها شاب طويل القامة لدرجة أشعرتني بالتضاؤل أمامه، كتفاه العريضان أوحيا لي بأن هناك الكثير من العضلات مختبئة تحت ملابسه، حليق الوجه، أبيض البشرة.. يرتدي معطفًا ثقيلًا يظهر قميصه من تحته، وسروالًا من الجينز يداري بضع عضلات أخرى على الأرجح، دعوت الله أن يكون «رامي» صديقك ولو أن مظهره يوحي باسم «عبد الواحد» أكثر، صافحني بحرارة شديدة وهو يعتصر يدي بقوة وأنا أحاول تمالك نفسي كي لا أصرخ كالنساء من الألم.. طبعًا هو «رامي»، عرفني من وجهي، قال إنه رآني مرة في حفلة من حفلات التوقيع، أدخلني السيارة وانطلقنا لمنزله.

لم يتحدث كثيرًا ليتركني أشاهد معالم الطرق في القرية، وكنت في احتياج لهذا بالفعل، هناك الكثير من العمارات حديثة الإنشاء كما أرى، صادفتني بعض المنازل ذات الطابقين مبنية بالطوب اللبن كما فهمت من «رامي» بعد أن سألته عنها، لا تختلف القرية عن أحياء القاهرة كثيرًا إلا في عدد الناس، فعددهم قليل مقارنة بنا، غير هذا فقد انتشرت المحال والمقاهي في الشوارع، ومرت بجانبنا سيارات من موديلات حديثة مختلفة بطريقة طبيعية.

- كنت فاكرنا عايشين في الخيام وبنتنقل بالجمال.. صح؟

سمعت «رامي» وهو ينطق تلك الجملة بشيء من السخرية واللوم:

- بصراحة آه.. «حسين» كلمني على قبيلة «ولاد عمار» إنهم في صحرا، فافتكرت إن «القصر» زيهم.

- إحنا فين و(ولاد عمار) فين.. هُمَّا برا «القصر» بحوالي 15 كيلو، لكن احنا هنا زي مصر، على العموم انت هتبات في بيتي النهارده وبكرة نصلي الفجر ونطلع عليهم على طول.

عدتُ لأشاهد منازل القرية وشوارعها حتى توقفنا أمام منزله المكون من طابقين والمبني بالطوب الأحمر.

أدخلني للمَضيَفة وهي قاعة مفتوحة تُشبِه شقةً صغيرةً لكن بلا غرف، بها العديد من المقاعد والأرائك التي يمكن تغييرها لتصبح فراشًا صغيرًا، هناك حمامٌ صغيرٌ ومطبخٌ به الكثير من

الشاي والقهوة والسكر وموقد كهربي بعين واحدة.. هنا سأبيت ليلتي كما علمت منه.

تركني لأغير ملابسي وأستخدم الحمّام، ارتديت شيئًا مريحًا لكنه يدفئني لأن درجة الحرارة هنا منخفضة بشكل كبير، برغم أننا ما زلنا في فصل الشتاء إلا أن درجة الحرارة لم تكن منخفضة بهذا الشكل في القاهرة.

بعد ربع ساعة سمعت دقات على باب القاعة دخل بعدها «رامي» يحمل صينية طعام كبيرة وخلفه شقيقه الذي عرّفني به، تبادلنا التحية بينما دخل والد «رامي» بعدهما ليستقبلني بحرارة وبعبارات فخيمة.

عندما قابلت «رامي» اعتقدت في البداية أنه يتحدث اللهجة القاهرية بطلاقة بسبب أنه يحضر لمناقشة الدكتوراة في التاريخ في (جامعة القاهرة) كما قلت لي سابقًا وأن بقية القرية لها لهجة مختلفة، لكن شقيقه ووالده يتحدثان بلهجة قاهرية طبيعية سريعة قليلًا.. هل يتكلم أهل الواحات تلك اللهجة بشكلٍ عامٍ أم يتحدثون بها معي فقط كنوعٍ من الترحيب؟

تركني والده وشقيقه لأنهما تناولا الطعام منذ فترة قريبة، وأوصاني على «رامي» وأن أهتم به عند مناقشة رسالة الدكتوراة، طبعًا.. فعائلته تعتقد أنني المشرف على رسالته باعتباري أستاذ بجامعة القاهرة كما اتفقت أنت معه.

جلسنا لنتناول الطعام.. بصراحة كانت الصينية ممتلئة بالأوز المحمر أو البط والذي لا يهمني أن أعرفه فقد التهمته كله، والفراخ المشوية التي ابتلعتها بجنون، لا مجال لقواعد الأدب فالجوع يقتلني، أنهينا الطعام وأنا أشعر بخمول لذيذ يدعوني للنوم.

تمنيت ساعتها أن يتركني «رامي» لأنام، لكنه أخرج الأطباق الفارغة أمام الباب وعاد للمَضيَفة ليعد الشاي لنا، دارت مناقشة بيننا عن كيفية تعرفنا نحن الاثنان عليك، أخبرته أنني قابلتك شخصيًا في عام 2013 عندما عرَّفني عليك كاتب آخر كان صديقًا مشتركًا لنا، عرف «رامي» أنني كتبت أربع روايات يدورون حول الأفكار الصوفية والفلسفية أكثر من الدرامية، ومن الظاهر أنه قرأ إحداها ولم تعجبه لكنه لم يتطرق للحديث عنها.

تناولت الشاي وأنا أغالب الشعور بالنعاس.. أما «رامي» فقال وهو يجلس بالقرب مني:

- إيه السبب الحقيقي اللي خلاك تيجي هنا يا أستاذ «عصام»؟

طار النوم من عيني وأنا أنظر له بطرف عيني، لم أفكر كثيرًا وأنا أقول:

- تفتكر هاخبي عليك ليه؟ هو مش «حسين» قالك إني جاي أزور قبيلة «أولاد عمار» وأشوف المقبرة اللي عندهم اللي بيسموها «ضريح عمرو بن الجن»؟

- آه بس الضريح ده محدش يعرف عنه حاجة غير ناس قليلة

في القبيلة، كبار عائلات القبيلة وكام واحد تانيين، ومحدش يعرف التاريخ ده اللي بيتكرر كل 10 سنين إلا هُمَّا بس، ازاي «حسين» بعتك في التوقيت ده بالذات؟

شعرت بلهجة اتهام برغم أن لا تهمة عليَّ، وتذكرتك يا «حسين» وأنا أسبك في سري.. لم تمر لحظات إلا وأنا أضع كوب الشاي جانبًا بينما «رامي» يخرج علبة سجائر من جيب سرواله ويشعل منها سيجارة ناظرًا لي بتحفز.

- اسمع يا «رامي»، أنا هاقولك على كل شيء أعرفه من دلوقت علشان متظنش فيا أي سوء.

نفث «رامي» دخان سيجارته وتعبيرات وجهه الحادة ترمقني، صمته يدعوني لتكملة الحديث بدون أي وعود لتصديقي، قلت وأنا أعتدل في مجلسي:

- من شهر «حسين» جالي المكتب وطلب مني مساعدته، قال لي إنه محتاجني أزور ضريح لولي من الأولياء في منطقة الواحات، أنا في الأول مفهمتش حاجة، لكنه شرحلي إنه محتاجلي أنا لسببين أولهم لأني كنت صوفي زمان أوي واهتميت بالمقامات والأضرحة طول عمري.. في الأول مقتنعتش بكلامه لكنه أقنعني لما قالي السبب التاني.

«رامي» الغبي مازال ينفث الدخان في وجهي بصمت، لا يعرف أنني توقفت عن التدخين منذ عام وثلاثة أشهر، أشعر بأنني أحتاج لسيجارة الآن، لكنني حاولت تناسي إحساسي وأكملت:

- السبب التاني إني زي ما قلتلك كنت صوفي زمان، يعني مبقتش دلوقت، بعدت عن الصوفية من 3 سنين، مبقتش مؤمن بكل تفاصيلها زي الأول.. بحب حاجات فيها لغاية دلوقت لكن كرهت كتير منها.

أخيرًا تكلّم «رامي» قائلًا:

- يعني إيه؟، السبب الأول عايزك علشان بتزور المقامات والتاني علشان بطلت تزورها.. هو «حسين» بيقلش علينا ولّا إيه؟!

- لا.. هفهّمك، لما سبت التصوف فضلت أحترمه وحتى الحاجات اللي كرهتها فيه لسه باحترمها وباحترم اعتقاد الناس فيها، مش مؤمن دلوقت إن المدفونين في الأضرحة ليهم بركات، لكن باحترمهم وأحترم حياتهم ومماتهم وعلمهم، باحب أتفرج على معمار المقامات والأضرحة وأشوف الحالة الروحانية الجميلة اللي بتسيبها في نفوس الناس، علشان كده «حسين» طلب مني آجي، لأني هاكون متعادل في حكمي، هاشوف الضريح وأقدر أبلغه باللي هشوفه هناك في الليلة اللي بتتكرر كل 10 سنين.

أطفأ «رامي» سيجارته في مطفأة سجائر على إحدى المناضد، الغبي أطفأها من منتصفها، لو كانت تلك السيجارة بيدي لشربتها حتى آخر نفس ثم أكلت الفلتر، قال لي بشك:

- طب وازاي هو عرف الميعاد؟

نهضت لأذهب لحقائب سفري وفتحت إحداها وأنا أقول:

- قالي إنه اشترى مخطوط من واحد صوفي بسعر رخيص، عبارة من كام ورقة انكتبوا في القرن ال 19، كلهم كانوا مكتوبين بحاجة اسمها قلم روحاني.

- إيه القلم الروحاني ده؟

قالها «رامي» بينما أنا أخرج من الحقيبة الورقة التي كتبها لي، أعطيتها لرامي وأنا أقول:

- القلم الروحاني ده حاجة كده شبه نكش الفراخ بعيد عنك، الظاهر إن فيه ناس زمان كانت بتشفر النصوص الخاصة أوي بشكل رموز، بيقول إن صاحب المخطوط كان وارثه من مكتبة أبوه بس هو مش عارف يقراه، علشان كده اتخلى عنه بسرعة، لكن «حسين» فك الشفرة بسهولة علشان كانت رموزها مشهورة وعنده مفاتيحها، اسم القلم اللي انكتب بيه الكلام (القلم المصري)، واللي في إيدك ده ملخص بالعربي للي كان مكتوب، ادهوني «حسين».

لم يكن «رامي» معي لأنه يسبح الآن بعينيه في الورقة، رفع وجهه إليّ وقال واجمًا:

- إيه الشخشيخة دي؟

جلست على الأريكة وأنا أقول:

- سيبني أحكيلك اللي مكتوب جوه الورقة علشان فيه مصطلحات كتير فهمتها من «حسين» ولازم تسمعها مني.

أخبرته بأن المخطوط كتبه رجل من الفيوم يلقب بأبي باسل،

وأنه كان مديرًا على أحد أوقاف الأزهر هناك، وكيف أنه وصف في المخطوط بدقة قصر «أم حليجة» بصحراء الفيوم، القصر الذي بُني على الطراز الإسلامي وترصعت مداخله بالأحجار الكريمة وأرض قاعاته الداخلية رصفت بالعملات الفضية والذهبية، وأرائكه نسجت وسائدها بخيوط من الذهب يحاوطها الألماس، وكيف أن «أبا باسل» دخل للقصر بشكل رسمي حاملًا رسالة من «حسين الملا» أحد نظار «محمد علي باشا» فشاهد هناك الشخشيخة العجيبة التي يتحدث عنها الناس، بالطبع حاولت شرح معنى الشخشيخة لرامي أنها فتحات في السقف تسمح بدخول الإضاءة وفي نفس الوقت تعمل كتهوية لأنها تسمح بمغادرة الهواء الساخن منها وتعلو تلك الشخشيخة شكل معماري كالقباب مثلًا، أما شخشيخة قصر «أم حليجة» فهي غريبة، لأنها كانت تنير القصر في المساء بإضاءة بيضاء اللون، الشخشيخة الخاصة بقاعة الاستقبال الرئيسية زينت بألواح مزخرفة تمتص ضوء الشمس صباحًا وتضيء به القاعة ليلًا، ومن الألواح تخرج حبالٌ طويلةٌ تصل لألواح أخرى في شخشيخة بقاعة ثانية وثالثة وهكذا حتى تضاء تسع قاعات من قاعات القصر، أما الضوء فقد أتى من قناديل ذات زجاج شفاف، تجمع الألواحُ الإضاءةَ بها فتُخرِج ضوءًا أبيض قويًا ينير القصر ويظهر خارجًا من القصر لكل مظن يمر بجانبه ليلًا.. أما «أبو باسل» نفسه فقد تعرّف على أحد خدم القصر والذي أخبره بأن «أم حليجة» صوفية المذهب أبًا عن جد أخذت العهد عن شيخ المرابطين بمصر كما أخذه أبوها من

المغرب، لها من الكرامات ما لا يُعَد ولا يحصى، وبعد الخدمات التي قامت بها عندما كانت تتوسط دائمًا بين الحكومة المصرية في القاهرة وبين قبيلة «الرماح» لتصفية الخلافات.. أهداها عربان بنو «الرماح» بعض متعلقات أحد الأولياء الذين عاشوا في بقعةٍ بعيدةٍ في صحراء الواحات الداخلة، لا يعرف موضع دفنه ومقامه إلا «بنو عمار»، أحد بطون قبيلة (الرماح).

الوحيدون الذين انفصلوا وعاشوا بالقرب من مقام هذا الولي، يحمون قبره ويتبركون بمقامه وينعمون ببركاته، يقول «أبو باسل» إن الخادم حكى عن كرامة من كرامات هذا الولي، وهي أن قبره يُفتَح من تلقاء نفسه كل عشر سنوات، في تاريخ هجري ترجمته أنت يا «حسين» إلى الثامن من شهر فبراير في السنة الثالثة من الأعداد العشرية للتاريخ الميلادي، يخرج من القبرِ أتباعُ الولي من الجن يطوفون حول مقامه في حلقةٍ من الذِّكرِ لله وينعون فيها شيخهم وابن عمومتهم.. قاطعني هنا «رامي» وهو يستفسر:

- الجن ولاد العم الولي ده؟؟

- دا اللي مكتوب في الورق، اسم الولي هو «عمرو بن الجن»، و «أبو باسل» بيقول إن جني اتجوز أمه ولما اتولد «عمرو» خطفه أبوه لتحت الأرض، ورجع تاني لما كبر عاش فترة في الواحات الداخلة، ومات هناك ومحدش عِرِف سره إلا «ولاد عمار» اللي عاش ومات وسطهم، أما متعلقاته فكلها كرامات مايعرفهاش إلا اللي بيحرسها.

- يعني قبيلة «الرماح» في الفيوم وقصر «أم حليجة» في الفيوم برضو ومع ذلك جاتلها الهدية من ولاد «عمار» اللي هنا؟

قال «رامي» عبارته وهو يشعل سيجارةً أخرى وعقلي ينشغل بمراقبة الدخان الصادر من فمه بينما يكمل هو:

- وكلام كاتبه واحد ملوش اعتبار زمان ولا نعرف عنه إلا إن اسمه «أبو باسل» بيقول إنهم جابوا لأمّ حليجة حاجة بتنور قصرها بالجن علشان بيحبوها لله في لله.. إنت مش ملاحظ إن الكلام ده ملخبط ولا يرقى حتى إنه يكون أسطورة حديثة.

أجبرت عقلي أن يتوقف عن مراقبة سيجارة «رامي» ورفعت قدمي على الأريكة لأضعها تحتي كي أرتاح بمجلسي وقلت:

- فيه فرع في التاريخ اسمه التاريخ الهامشي، هو فرع جديد وعليه اختلاف كبير لكنه بيعتمد على أجزاء صغيرة لأحداث ممكن تبان إنها مش مهمة أو مش جاية من مصدر موثوق، علشان يقدر يرسم منظور جديد لفترة تاريخية كنا فاكرين إن اللي وصلنا عنها كله صح، الكلام اللي في المخطوط ده ممكن يكون مدخل لموضوع أكبر.. وممكن يطلع كله كفتة وولا ليه أي لازمة، لكن متنكرش إن...

قاطعني «رامي» بشيء من العصبية والتعالي وهو يقول بحدة:

- مفيش حاجة اسمها تاريخ هامشي، أنا دكتور في التاريخ وبقولك إن ده كلام فاضي، «حسين» مش متخصص في التاريخ علشان يحكم على مخطوط وياخده كمصدر موثوق.

- هو انت مش لسه بتحضّر في رسالة الدكتوراة؟

- آه..

- أومال إيه دكتور في التاريخ اللي بتقولها دي؟

قلت عبارتي لأفاجأ برامي يلقي بالسيجارة على الأرض ويسحقها بحذائه.. هذا الشاب يلقي بالكثير من السجائر بعد أن يسحب منها نَفَسين فقط، يجب أن أقتله في وقتٍ آخر بسبب ما يفعله في تلك السجائر المسكينة، المهم أنه نظر لي بعصبية وقال بصوت عال:

- أنا اتأخرت في مناقشة رسالة الدكتوراة كام شهر، يعني كأني دكتور بالظبط، ومش أي دكتور، أنا كل اللي في الجامعة بيحلفوا بذكائي وقوتي في التاريخ.

أعرف هذا النوع جيدًا، طالب الكلية المنطوي الذي يحلم بدرجة الدكتوراة، ويظل ينعت نفسه بهذا اللقب بمجرد تخرُّجه من الكلية، هذا النوع الذي يشعر بأن الكون كله يتلخص في حصوله على الدكتوراة حتى ولو كانت في صناعة الملابس الداخلية، أكرههم جميعًا لتعاليهم على الجميع وكأنهم امتلكوا تصريحًا إلهيًا بالفتوى في المسائل العلمية حتى التي لا تخصه، كل ما فات لم يغضبني، لكن الذي أغضبني بحق هو تعامله الفظ مع السجائر، لذلك قلت له ببرود:

- شوف يا «رامي»، إنت هاتاخد درجة الدكتوراة إن شاء الله في موضوع تاريخي واحد، فلما تاخدها ابقى افتي في الموضوع

بتاعك زي ما تحب وبرضو كلامك مش هايكون ملزِم للمؤرخين أو الباحثين اللي شغالين في نفس موضوعك، لكن إوعاك تفتكر إنك هاتفتي في كل مواضيع التاريخ، الحكاية أكبر مني ومنك، واحنا هنا مش علشان نناقر في بعض، أنا جاي علشان شغل وانت لو عايز تساعدني ساعدني أوصل للحقيقة مش إني أنحاز للجانب بتاعك لمجرد إنك بتناقش رسالة دكتوراة ولسه ما أخدتهاش كمان.

انتهيت من كلامي وأخذت نفسًا عميقًا وأنا أنظر للسيجارة التي سحقها «رامي» منذ قليل، أكاد أراها تنظر لي بامتنان ودموع الشكر تنهال منها في شكل رماد.. فجأة ابتسم «رامي» كالمرضى النفسيين وهو يحدق في عيني بصمت، هل كان يفكر في قتلي حينها أم فكر وهو الآن يختار الطريقة المناسبة لإخفاء الجثة؟

لم يمر الكثير من الوقت على هذا الوضع حتى اقترب مني وجلس بجانبي وهو يقول والابتسامة مازالت ملتصقة على وجهه:

- إنت مالك واخد الموضوع بعصبية كده ليه؟ أنا كنت بهزر معاك.. انت صدقت اللي بقوله؟

- آه صدقت.

قلتها والشك يقفز من عيني وأنا أحاول فهم ما يَرمي إليه، قال وهو يرتخي على الأريكة بجانبي:

- أنا حبيت أنكشك بس، يعني «حسين» باعتك كل المسافة دي وسايبك أمانة معايا وتفتكر إني مش مقتنع بكل اللي انت قلته وأعرف أكتر كمان من اللي انت تعرفه.

آه يا ابن الـ... أرسلتني لمن يتلاعب بي يا «حسين»، لن أسامح «رامي» على العرض المسرحي الذي قام به أمامي، ما كان يجب أن يقتل سيجارتين كي يفعل بي ما فعل.. ما ذنب السجائر في تفاهاتنا.

- يعني انت بتستعماني يا «رامي»؟ طب ليه بس يا أخي..

ضحك هو ضحكة سمجة لم أفهم معناها وتربع في مجلسه قائلًا:

- معلش على المقلب، أساسًا «حسين» استشارني في قصص وحكايات قبيلة «الرماح» باعتباري أعرف كتير عنهم علشان صلة نَسبي بولاد (عمار)، وكمان علشان التاريخ تخصُّصي، وأنا دوّرت ورا كلامه ولقيت فيه شيء من الحقيقة.

- إنت مناسب قبيلة ولاد «عمار»؟ ازاي؟ هو انت متجوز يا ابني؟

- لا.. دا نسب بعيد من جوز خالتي، لكن النسب عندنا مهم وفعال أكتر من النسب عندكم في القاهرة، النسب ده يخلي ولاد «عمار» يعتبروني من العيلة.. كتير من ولاد «عمار» سابوا قبيلتهم في الصحرا ونزلوا هنا في «القصر» يعيشوا ويتجوزوا مننا، مبقاش فاضل في مكان القبيلة إلا ناس قليلة أوي تقدر تقول عليهم عواجيز العائلات اللي كانت عايشة، أولادهم وأحفادهم بيطلعوا يزوروهم من وقت للتاني يقعدوا معاهم يومين ويرجعوا قريتنا تاني.

- يعني انت زرت القبيلة قبل كده وشوفت الضريح؟

- كام مرة طلعت مع ناس أصحابي من ولاد «عمار»، لكن لما

حاولت أدوّر ورا موضوع الضريح ده محدش فيهم كان عارفه إلا واحد وقالي عليه إنه كلام فاضي وتخاريف جدودهم.

- يعني الموضوع طلع فاساكونيا؟

- يعني إيه فاساكونيا دي؟

- أقصد الموضوع طلع مش حقيقي؟

- مقدرش أقول إنه مش حقيقي، مفيش دخان من غير نار.

قال «رامي» عبارته وأخرج علبة سجائره فوضعت يدي على العلبة وأنا أرجوه أن يتوقف عن بهدلة السجائر معه:

- والنبي يا أخي لو هاتشرب سيجارة اشربها للآخر، بلاش توجعها وتوجعني معاك.

نظر لي بدهشة فأخبرته أنني تركت التدخين من فترة وأكره من يبدأ سيجارته ولم يكملها، عرض عليّ سيجارة فرفضتها بحماس وأنا ألعن نفسي من داخلي أنني لم أقبلها، ابتسم وأشعل سيجارة وهو يقول:

- على العموم لما تحب تشرب سيجارة قولي.

شكرته وسألته عما يعرفه بالتفصيل عن موضوع «أم حليجة» فأخبرني والدخان يخرج من فمه:

- دورت ورا اسمها في كل المراجع اللي قدرت إيدي توصلها، لكن الكلام عنها منعدم إلا في كام كتاب، أما في حكايات القبائل العربية فأم حليجة موجودة بكل الأشكال اللي تتخيلها، ومعظمهم بيوصف

حكاياتها بدقة كأنه كان عايش معاها، لدرجة إن فيه قبائل زي «الرماح» بتحكي عنها حكاية تخصهم زي إنها اتوسطت ليهم عند «محمد علي باشا» علشان يعمل لقب مدني اسمه (الفارس) يمنح لشباب القبائل العربية بورقة رسمية، والوالي وافق بشرط إن اللقب يكون لقبائل الرماح بس، نفس القصة بتتحكي لكن من منظور قبيلة «أولاد علي» وإن الوالي وافق إنه يمنحهم بس اللقب ده، من الآخر كده «أم حليجة» دي كانت زي الأسطورة اللي بتكمل تاريخ القبائل العربية في حكاياتهم.

- طب وموضوع إنها صوفية وبيتها اللي عليه خدم من الجن والحركات دي، إيه نظامها؟

نهض ليحضر مطفأة السجائر ووضعها بجانبنا وهو يقول:

- في كل حكاياتها هاتلاقيها صوفية وليها كرامات كمان، مثال للتدين والطهر والعفة والروحانية، أما قصرها فوصفه موجود عند كتير من القبائل اللي شيوخها زاروها، والوصف شبه بعضه وخصوصًا موضوع الشخشيخة وتجميعها لضوء الشمس، لكن الكلام دايمًا بيكون إنها كرامة من كراماتها، وفيه كلام تاني إن خُدّامها من الجن اللي أخدوا عهد التصوف على إيديها هُمّا اللي بيقدروا يجمعوا الضوء من الشمس وينوروا بيه بالليل، بس حكاية إن الشخشيخة دي هدية من «ولاد عمار» مش موجودة في أي حتة.

استنشقت بعض الدخان الخارج من فم «رامي» وقلت مسترخيًا:

- طالما القصة مش موجودة عند حد إلا في المخطوط ده يبقى كده فيه احتمال إن الشخشيخة ليها علاقة بولاد «عمار».

- الكلام ده جه في بالي برضو، برغم إن قبيلة «الرماح» بتنفي الكلام ده، بتفتخر إنهم كانوا قريبين من «أم حليجة» لكن في نفس الوقت مفيش ذكر للحكاية دي عندهم، المفاجأة بقى إن «الرماح» بينكروا علاقتهم بولاد عمار.

- نعم يا اخويا!

قلتها وأنا أعتدل بمجلسي بعدما تنبهت حواسي لكلماته.

- زي ما بقولك، قبائل «الرماح» بيعترفوا ببطون وعائلات كتيرة تنسب لقبيلتهم في مصر زي ولاد (زيدان) وولاد (السكران) و(البصيري) وغيرهم وغيرهم، لكن عائلات «عمار» وقبيلتهم بينكروها، بيقولوا إنهم بيتمحكوا في نسبهم اللي واصل للشاعر (امرؤ القيس).

- إيه اللخبطة دي بقى؟

- بتحصل الحكاية دي كتير وياما قبائل عملت مشاكل مع قبائل تانية علشان النَّسَب والانتماء، وخصوصًا إن «أولاد عمار» بعدوا عن الكل من أكتر من 150 سنة وفضلوا منعزلين في مكانهم فماهتموش بالرد على قبائل «الرماح» في موضوع نَسَبهم.

- ما انت بتقول إن الجيل الجديد عايشين معاكم والحياة بقت مَتجَهة معاهم.

- ما انت لسه بتقول أهو الجيل الجديد، أما القديم بقى قَلِيسه عايشين كأنهم في العصور الوسطى.

- إزاي؟

- لا موبايل ولا تلفزيون ولا كومبيوتر ولا حتى عربيات.

- الله.. أومال بياكلوا ويشربوا ازاي؟

- عادي، لما بيحتاجوا حاجة من الحضر بينزلوا قريتنا أو أي قرية قريبة بعربيات، لكن جوة القبيلة نفسها مفيش عربيات، بيجيبوا اللي بيحتاجوه للأكل والشرب والحياة.

- طب ما يجيبوا تلفزيون وموبايل وخلافه ويدلعوا نفسهم.

ابتسم بطرف فمه كأنه يسخر مني، قال وهو يسحب آخر أنفاس السيجارة:

- قولي انت جبت إيه علشان تاخده معاك بكرة للقبيلة؟

ابتسمت أنا وقد أحسستُ بقُرب معرفتي السبب فيما أحمله معي، نهضت من الأريكة واتجهت لحقائبي وأنا أشير لإحداها قائلًا:

- هنا اللبس التقيل واللبس الداخلي ولامؤاخذة والحاجات الشخصية «

نهض «رامي» خلفي بعدما أطفأ السيجارة لترقد بجانب أختها في مثواها الأخير، وأشار إلى الحقيبة وهو يقول:

- خُد منها اللي يكفيك كام يوم والباقي سيبه هنا وأنا هاجيبهولك لو احتاجته، علشان تكون رايح هناك خفيف خفيف.

- كويس..

قلتها وأنا أتجه لحقيبة سفر كبيرة من حقائبي وأفتحها وأنا أقول:

- ودلوقت بقى شكلك تعرف السبب اللي «حسين» خلاني أجيب الحاجات دي علشانه.

ابتسم هو كما توقعت وقال:

- حاجات إيه؟

أخرجت الكاميرا وأنا أقول:

- كاميرا فوتوغرافيا شغالة بنظام الأفلام اللي بتتحمض، والحامل بتاعها وفلاش خاص بيها شغال بنظام اللمض اللي بتتغير.

أخرجت العلبة المعدنية التي تحتوي على المصابيح الصغيرة وبدأت في شرح الموضوع، عندما اشترينا تلك الكاميرا معًا، أخبرته بأنها ليست قديمة جدًا لكنها من إنتاج شركة (كوداك) في الثمانينيات، في موضع الفلاش استخدمنا فلاشًا خاصًا صنعه «محمد طه» ابن خالتك يا «حسين»، وهو عبارة عن مربع صغير يوضع فيه مصباح صغير جدًا متصل بسلك، هذا السلك يتحكم فيه زر عبارة عن مقداح يعطي شرارة كهربية، الشرارة الكهربية تقوم بتفجير المصباح ليعطي إضاءة الفلاش القوية، أما المقداح نفسه فمتصل ببطارية جافة (حجارة) هي من تعطي قوة القدح الكهربي، وضع (محمد) مكان للبطارية الجافة والمصباح وأعطيتني أنت يا «حسين» 100 مصباح صغير بجانب 100 حجارة قلم وصممت أنت

عند استخدامي للفلاش أن أستخدم بطارية واحدة فقط عند كل مصباح جديد، هذه من الأسرار التي لم تطلعني على سببها حتى رحلت ولم أفهم سر تغيير البطارية كل مرة برغم أنها من المفروض أن تعطي عشرات القدحات الكهربية للمصابيح كما جربناها سويًا، لكن أعتقد أن «رامي» يعرف السر، لكنه هز رأسه مبتسمًا وقال:

- جميل جدًا.. كمل، معاك إيه كمان؟

ظهرت معالم الضيق على وجهي وأنا أخرج حقيبة جلدية وافتحها لأخرج منها التلسكوب:

- ده تلسكوب ومعاه منظار طويل أرضي بيركب على حامل التلسكوب، «حسين» اداني المنظار وقالي استخدمه وقت ما أحتاجه هو والتلسكوب، علّمني عليهم شوية، بس أنا حسيت إن «حسين» بيروشن عليا مش عارف ليه.

ضحك هو لكنني لم أضحك، ما الذي أعطيتني إياه أيها المجنون!!، كاميرا فوتوغرافية وتلسكوب فضائي ومنظار، لا أعرف لما لم تعطني حبلًا وكشافَ إضاءة وكرباجًا سودانيًا وربع بسطرمة بالمرة، ما هذه التناقضات وعلامات الاستفهام؟، ما أعرفه من قصصك التي تنشرها أن تلك الرحلة تلزمها مسبحة طويلة وخاتم ممتلئ بالطلاسم وبعض كتب السحر كي أواجه الجن أو الأشباح كما يحدث في الأفلام الأمريكية، لكن هذه الأدوات توحي لي بأنني في طريقي لرحلة سفاري في البحر الأحمر.

- وإيه كل الورق والأقلام دي؟

سأل «رامي» فأجبته بهدوء:

- دا الهطل بتاع «حسين» يا سيدي، ما هي كانت ناقصة.. حضرته إداني كمية ورق وأقلام علشان أكتبله اللي بيحصل معايا يوم بيوم، وأبعتله الورق في شكل طرد على عنوان بيته بعد يوم 8 فبراير بيوم، علشان هو مش هايستقبل أي تليفونات بعد ما هاسافر.

- فعلًا هو قالي الحكاية دي، إن محدش مننا يتصل بيه طول ما انت هنا.. بس الحقيقة يا (عصام) إن مش ده السبب الوحيد.

أعتقد أنه سيخبرني الآن عن السر وراء كل تلك الأشياء الغبية التي أجبرتني على فعلها.. جلس على مقعد قريب من الحقائب وقال:

- فاكر لما قلتلك إن ولاد «عمار» معندهمش أي مظهر من مظاهر التكنولوجيا.. الحقيقة بقى إن ده مش بمزاجهم، لأن مفيش تكنولوجيا بتشتغل عندهم.

- آاااه.. إنت جاي تهزر بقى.

قلتها وأنا أعيد الأدوات للحقيبة بعصبيةٍ فأكمَل هو:

- صدقني بتكلم بجد، معلش الموضوع غريب شوية بس لازم أحكيهولك كله علشان تستوعبه.

نظرت له بشك فوجدته يمد يده لي تحمل سيجارة يعرضها عليّ، أقسم إن ريقي ملأ فمي فجأة، ما هذا الشيطان! ألم أقل له إنني ابتعدت عن التدخين.

- شكرًا مش هادخن..

ولّعتها فوضع هو السيجارة في فمه وأشعلها ثم قال:

- ساعات بتتولد تشوف حاجة بتحصل حواليك أو قدامك دايمًا ومتحسش إنها غريبة، لأنها موجودة من أول ما وعيت على وش الدنيا مظبوط؟

جلست على الأريكة ورددت:

- مظبوط..

- آهي الحكاية كده مع ولاد (عمار).. اتولدنا لقيناهم كده، مفيش أي حاجة كهربا بتشتغل عندهم أو بالتحديد في المنطقة اللي هما عايشين فيها في الصحرا، لو راكبين عربية وراحينلهم هاتلاقي العربية بطلت ووقفت قبل ما نقرب منهم باتنين كيلو فننزل نمشي على رجلينا لحد ما نوصلهم، مفيش إشارات راديو أو تلفزيون بتدخل منطقتهم ولا استقبال أقمار صناعية ولا إشارات لاسلكية، كأن المنطقة بتبلع الإشارات دي كلها..

- إنت بتهزر؟

قلتها أنا ووجهي يرسم لوحة تمثل الاندهاش كما يجب أن يكون، فقال هو:

- معلش هاتاخد شوية علشان تستوعب وتصدق.. بس دي الحقيقة، المكان ده لما تخشه بكرة هاتشوف فيه هدوء عمرك ما شفته، مفيش أي أصوات إلا صوت الناس، هدوء ممكن يخوفك في

الأول لكن هاتتعود عليه مع الوقت، وخصوصًا لما تعرف إن مفيش طيور بتعدي فوق المكان ده ولا حيوانات بتقرب وكمان البوصلة مابتشتغلش هناك، بتقعد ترقص يمين وشمال.

- طب والكهربا مابتشتغلش في مساحة قُطرها أدّ إيه؟

- في حوالي 12 كيلو مكونين رسمة شبة المربع أو المستطيل.

- طب والحاجات الميكانيكية؟

- شغالة عادي.. يعني عندهم بوتجازات شغالة بأنابيب الغاز، روافع مية وحنفيات موصلينها في الآبار، لكن زي ما قلتلك (جي بي اس) أو تليفون محمول أو أي حاجة ليها علاقة بالكهربا والموجات مبتشتغلش.

- والكاميرا الديجيتال أكيد مش هاتشتغل.

- الله ينور عليك..

فهمت الآن يا «حسين» لما أعطيتني كاميرا فوتغرافيا قديمة تعمل بشكل ميكانيكي وفلاشها لا يتصل بالكهرباء بشكل دائم، لكن هناك مشكلة..

- إن كانت الكهرباء مبتشتغلش يبقى ازاي الحجارة القلم هاتشغل لمبة الفلاش؟

- أنا اتفقت مع «حسين» على موضوع الكاميرا القديمة، لكن الفلاش بتاع الكاميرا شكلها افتكاسة منه أو من حد تاني، مش عارف هاتشتغل ازاي..

- وعلشان كده أنا مجبر أكتب كل حاجة في شكل ورق بدل ما اتصل بيه وأبلغه بنفسي..

- وأنا هابعت اللي انت هاتكتبه على مرتين كل مرة في شكل طرد من مكتب البريد اللي هنا، المرة الأولى يوم 9 فبراير والتانية يوم 15 من نفس الشهر ويوم 20 هارجعك القرية هنا تاني انت والضيف اللي معاك وتروحوا على مصر تاني.

- ضيف مين؟ هو أنا مش هاروح لوحدي؟

تنحنح «رامي» وابتسم مرة ثانية بسماجة وهو يقول:

- فيه واحد تاني «حسين» كان المفروض يبعته معاك، لكنه لازم يخلص حاجة الأول في مصر ويحصلك قبل يوم 8 فبراير.

- محدش قالي ليه على الحكاية دي؟

- «حسين» قال إنك هاتتفهم الموقف ومش هاتتضايق، أنا معرفش مين اللي جاي والله بس أنا مجبر أستناه هنا وأوصله ليك أول ما يوصل «القصر».

- آه ما هي رحلة للقناطر عمال يبعتلها كل شوية حد بروح أمه.

أنا قائل العبارة السابقة وأعتقد أنها توضح جزءًا مما يعتمر في ذهني عنك، ما هذه الألعاب الصبيانية؟ كيف لم تقل لي بأن شخصًا ما سيذهب معي! فكرت لحظتها بأن أعود للقاهرة مرة أخرى وأنسى كل هذا الهراء لكنني تمالكت نفسي بسرعة وقلت بهدوء شديد:

- طب إيه تاني انت تعرفه علشان نخلص مرة واحدة.

أطفأ سيجارته وقال بجدية وأدب لأنه لاحظ وجهي المتصلب الملامح:

- مفيش غير إننا هانقابل بكرة (رفاعي).. أخو واحد صاحبي من القبيلة، أنا بلغته إنك دكتور في التاريخ الحديث وجاي علشان بتكتب كتاب عن الصوفية في الواحات الداخلة والخارجة، وقبر «عمرو بن الجن» هو أول مقام هاتزوره وتكتب عنه في كتابك، «رفاعي» عيلته مهمة أوي في القبيلة وهايقدر يساعدك، بس خلي بالك لأنه مثقف وبيحب يقرأ في مجالات كتير، أوعى تستقل بعقله.

- موقف «رفاعي» إيه من الضريح؟

- لو تقصد مؤمن بيه ولا لأ فهو متعادل، شبَهَك شوية، بيحترم القبر لكن مش مؤمن بكرامات ممكن تفيده، ثم هو أساسًا ناسي وجوده، لأنه من الشباب اللي نزلوا عاشوا معانا هنا في القرية لكن في نفس الوقت كل شهر بيروح القبيلة يقعد هناك اسبوعين ويرجع للقرية تاني، ويعتبر هو واحد من المسئولين عن التموين للقبيلة، يعني وهو ماشي من عندهم ساعات يوصوه يجبلهم حاجات وهو جاي المرة اللي بعديها، أكل.. أدوات.. جرايد ومجلات وكتب..

- مجلات وكتب..

- تقدر تقول إن قطاع كبير من ولاد «عمار» اللي عايشين في

القبيلة لسه بيقرأ كتير، متنساش إنها تسلية كويسة لحد معندوش لا راديو ولا تلفزيون.

- طب فيه أي موضوع تاني ليه علاقة بصياغة «حسين» عليا، يعني حاجة مخبينها كده ولّا كده..

ابتسم «رامي» لكنه سرعان ما عاد للجدية عندما أحسّ أنني لن أقبل بأي تلاعب معي منذ الآن وأن عليه أن يخبرني بكل شيء، أقسم لي إنه لا شيء يعرفه سوى أن الضيف سيصل بعد غد للقرية وأنه سيحضره للقبيلة. أنهى الكلام وتركني لأنام كي أصحو باكرًا لأننا سنتحرك بعد صلاة الفجر مباشرة. كما أعطاني رقم هاتفه لأطلبه إن احتجت أي شيء الليلة.

ها أنا أجلس على الأريكة أكتب لك تفاصيل اليوم الأول لي وهذا سيكون ديدني كل يوم، بعد إنتهاء اليوم سأكتب كل شيء هام حدث لي حتى نصل لتلك الليلة. ثم أجمع كل الأوراق وأرسلها لك مرةً واحدةً.

لا أعلم ما ينتظرني يا صديقي لكن ذنبي برقبتك إن حدث لي شيء.

***

5 فبراير

اليوم أنا متحمس بشدة، فبعد نوم عميق في مضيفة «رامي» أيقظني قبل صلاة الفجر لأتوضأ، خرجنا في الظلام نسير وسط منازل القرية حتى وصلنا للمسجد، دَعني أعترف يا «حسين» أنني ابتعدت عن الصلاة الفترة السابقة، لكن صلاة الفجر في ذلك المسجد أنعشت روحي، حتى إنني اتخذت قرارًا اليوم بالعودة للمداومة على الصلاة ثانية وأتمنى أن أستمر فيه.

المهم عدنا لمنزل «رامي» لنتناول إفطارًا منزليًا يمتلئ بالكثير من الأصناف التي لا أستطيع حصرَها، «رامي» كان كريمًا معي ومع معدتي لأبعد الحدود، بعد اختيار بعض الملابس من حقيبتي وبقية الأشياء استقللنا سيارة «رامي» وذهبنا لخارج القرية، نحن الآن في الصحراء، لون أصفر على امتداد بصري أصابني بالصداع بعد دقائق، خاصة مع شروق الشمس، فتح «رامي» راديو السيارة على محطة بلهاء لا تبث شيئًا جدي، لكنني عَلِمت لما كان يستمع لتلك المحطة، بعد قليل وجدت أن المحطة الإذاعية تتشوّش، نظرت لرامي فوجدته مبتسمًا وهو يخبرني بأننا اقتربنا من المكان، فهمته بعد لحظات عندما انقطع البث فجأةً وظهرت أمامَنا ثلاث سيارات من ذوات الدفع الرباعي متراصين بجانب بعضهم البعض في وضع الوقوف،

الأغرب أن لا وجود لبشر بجانب تلك السيارات، والأغرب أن «رامي» قام بركن السيارة في نفس البقعة، وهو يخبرني بأن السيارة لو تخطت تلك البقعة فستتوقف البطارية عن العمل.

هبطنا من السيارة وحملنا الحقائب.. لاحظت أن هناك وتدًا من الخشب مغروسًا في الأرض وحوله حبل معقود ومشدود طرفه إلى ما لا نهاية.

فهمت تلك النقطة عندما سرنا بمحاذاة ذلك الحبل، تلك الطريقة ابتدعها رجال القرية كي يصل إليهم الشباب بسهولة عندما يوقفون سياراتهم هنا، وفي نفس الوقت يتتبعون الحبل المشدود من القرية في طريق عودتهم ليصلوا للسيارات.. مجتمع غريب لكنه ذكي، وهذا ما زاد من تحفزي وقدماي تغوص في الرمال أحاول اللحاق برامي سريع الخطوات.

تحفزي بعد قليل تحول لملل ثم لتعب ثم لرغبة شديدة بالعودة للسيارة.. الرمال تحيط بنا والطريق على ما يبدو طويل جدًا والحقائب ثقيلة، كيف يتحملون العيش في هذه الأماكن؟

هبّت فكرة برأسي وقررت تنفيذها وقد نسيت ما أخبرني به «رامي» بالأمس، أخرجت هاتفي المحمول لأشغل عليه بعض الأغاني لكن الهاتف لم يعمل.

- إنت نسيت ولّا إيه يا (عصام)، مفيش حاجة فيها كهربا هاتشتغل هنا .

قال «رامي» جملته وهو يمد الخطى وأنا أشعر أنه يبتسم بسخرية، أعصابي بدأت في الهيجان من برودته الشديد، هل ألتقط حجرًا وأهشم به مؤخرة رأسه وأعود للسيارة؟ لو فعلت سأكتشف أنني لا أستطيع القيادة، سأسير وراءه إذن حتى نصل لذلك المكان الغريب.

مرّ الكثير من الوقت أو هكذا خُيّل لي لأن ساعة يدي توقفت عن العمل، وجدت أخيرًا بعضَ الأبنية تظهَرُ في الأفقِ، أبنيةٌ من طابق واحد بقباب كبيرة، بنيت كلها بالأحجار على حد علمي، رأيت مثلها من قبل في قرية (القرنة الجديدة) أثناء إحدى رحلاتي للصعيد، لكن الأبنية التي أراها الآن أشعر بأنها قابلة للتهدم أكثر.

وجدت طرفَ الحبل الذي كنا نسير بجانبه، الطرف ملفوفٌ حول وتد آخر دق في الرمال، لن أكذب عليك يا «حسين» لكني لم أكن أتوقع أن تكون القبيلة بذلك الشكل عندما اقتربت أكثر منها.

رجال يرتدون الملابس البدوية وبعضهم يرتدي غترة على الرأس تشبه تلك التي يرتديها أهل دول الخليج العربي، والمشهد الذي أطار عقلي هو راكبي الأحصنة.

نعم فهناك رجال يمتطون أحصنة عربية صغيرة الحجم يتنقلون بها في هدوء تام بين منازل القبيلة، لم يكن العدد كبيرًا لكنه يكفي لأكون صورة عن أنني لم أذهب لقبيلة تنحدر من أصول عربية فقط.. لكنني ذهبت لقبيلة في عالمٍ خياليٍّ تُخالِف كل ما توقعته عن العرب الرحل.

نظر لي الجميع بدهشة وحذر لكنهم ألقوا عليَّ السلام وبالطبع رحّبوا بـ «رامي» بشكلٍ عنيفٍ كأنهم لم يلتقوه منذ بدء الخليقة، في هذا المكان سمعت لهجة تلك القبائل وعرفت أنني لن أفهمها، كلماتهم سريعة جدًا وتختلط فيها العربية القديمة باللهجة المصرية فتضطر لأن تطلب من محدثك أن يعيد ما قاله ثانيةً، وصدقني بعد محادثة صغيرة مع أحدهم سترى في عينيه نفاد الصبر منك لعدم فهمك للهجته وسيقلل حديثه معك بالتدريج حتى يتوقف تمامًا.

دخلنا منزل فسيح يتكون من عدة غرف تمتلئ بالوسائد الملونة المتراصة على الأرض بتناسق، عرفت أنه منزل لاستقبال الضيوف والترحيب بهم.. نسخة من (مضيفة) منزل «رامي» لكن بشكل أوسع وأكثر رحابة، جلسنا على الأرض بعد وضع الحقائب بجانبنا.. لم تمر دقيقة إلا ودخل رجل في الخمسين بصينية ممتلئة بأكواب الشاي وتبعه العديد من الرجال يرحبون بي، لم أفهم أغلب كلمات الترحيب لكنني شعرت بطيبة قلبهم وهم يضحكون بوجهي ويقدمون لي الشاي.

تحدثوا في موضوع ما فحاولت متابعته لكنني فشلت من التقاط لهجتهم، فجأة ذكر أحدهم شيئًا فضحكوا جميعًا بما فيهم «رامي» الذي تكلم بطريقتهم بسهولة.

دخل رجل آخر يحمل صينية كبيرة عليها صحن ضخم يصلح لاستخدامه كبانيو للاستحمام، ما كان في داخل الصحن لم أفهمه، لكنه

كثير جدًا ويشبه الخبز المقطع وأعلاه مادة سائلة شفافة، رائحته شهية هي خليط من رائحة المخبوزات ورائحة السمن، جلسنا حوله وأنا أحاول الاعتذار لهم بأنني تناولت الإفطار مع «رامي» لكنهم غضبوا، بينما «رامي» نفسه طلب مني بصوت خافت أن آكل كي لا يعتبروها إهانة.

مددت يدي مثلهم وأمسكت بقطعة لأجدها ساخنةً، قذفتها في فمي فاكتشفت سيلًا من الأطعمة والنكهات اللذيذة تخترق مخي، سمن وعسل ونكهة الفحم وطعم يشبه الفطير المشلتت.. لم يحتاجوا لإقناعي أكثر بتكملة الأكل، لأنني انهلت على هذا الشيء بسعادة غامرة.. لا أعرف كيف يحافظون على أوزانهم وسط كل تلك الكمية من السعادة، هذه الأشياء ليست لأصحاب الكروش الضعيفة.

انتهينا من الطعام وظهر الشاي الساخن ثانية من مكان ما، بدأت أفكر جديًا أن أدفن معهم على، أن أتناول مثل تلك الأشياء يوميًا حتى أموت بالتخمة.

قدمني «رامي» لهم على أنني سأكتب كتابًا عن الأضرحة والأولياء وسأدوّن تفاصيل حياة قبيلتهم باعتبارهم يقيمون بجانب ضريح «عمرو بن الجن»، هزوا رؤوسهم بلا اكتراث وعادوا للحديث حول أشياء لم أفهمها.

بعد نصف ساعة أخذوني لمنزلٍ آخر وأجلسوني معهم في ساحة المنزل، دخل علينا رجل في التسعين من عمره عرفت أنه شيخ القبيلة الحالي، يتسند على عصا من الخشب الزخرف ويسير ببطء

وهدوء حتى جلس بجانبنا.. انتبه الجميع له بأدبٍ وخشوعٍ، أبهرني هذا الرجل وهو يرحّب بي بلهجة قاهرية قوية، فقد درس في شبابه بالأزهر الشريف وعاد بعدها لقبيلته ليستقر فيها معلمًا قبل أن يتحول لكبيرهم.. قلت له:

- أنا مش عارف أشكركم إزاي على كل اللي انتوا بتعملوه ده، والله الواحد من كرمكم كان يتمنى يكون أصله من «أولاد عمار».

سمعت الجميع ينطق في نفس الوقت بكلمات أعتقد أنها المديح، أما شيخ القبيلة فقد ابتسم وهو يسألني عما أبحث عنه.

- أنا عايز أعرف عن «ضريح عمرو بن الجن» وتاريخه معاكم، يعني اللي مدفون في الضريح ده من قبيلتكم ولا قبيلة تانية؟ ومات سنة كام؟

تكلم شيخ القبيلة بهدوء ورزانة يخبرني عما سمعه من أجداده وخاصة أن جده الأكبر اشترك في حرب تتعلق بذلك الضريح، ما أخبرني به زاد من أسئلتي أكثر مما قدم لي من إجابات.

علمت أن «عمرو بن الجن» لا ينتمي لأي من القبائل العربية، لكنه أتى -حسب كلمات شيخ القبيلة- مع فارسٍ أسود، تحرجت من أن أستفسر عن هذا الفارس الأسود، هل لون بشرته أم ملابسه هي السوداء أم ماذا؟، المهم أن «عمرو» هذا تربى مع الجن حتى شب وكبر وعاد لهذه البقعة من الصحراء التي سكنتها قبيلة «ولاد عمار» قبل أن يتولى «علي بك الكبير» مقاليد حُكم مصر، أعتقد أنهم يقصدون قبل عام (1768) ميلاديًا، وعلى ما يبدو أن

«عمرو» هذا علمهم كيف ينتصرون على قوات «أحمد بك» الذي أرسله «علي بك الكبير» ليتخلص من كل عربان مصر، «أحمد بك» هذا الذي تولى فيما بعد ولاية (عكا) وأصبح اسمه «أحمد باشا الجزار»، والذي أباد الكثير من قبائل العربان لكنه فشل بالمساس ببطون قبائل «الرماح» بسبب «عمرو بن الجن».

كما كان لعمرو كرامات ومعجزات أخرى استمدها مما تعلمها فترة حياته مع الجن، كانت له متعلقات شخصية مسحورة من لمسها استمد سحرها، لم يكن الجالسون يصدقون ما يقال لكنهم يحترمون قائله، حتى حكى شيخ القبيلة عن حكاية قديمة يبدو أنهم لا يعرفونها لأنهم أنصتوا بشغفٍ لما يقوله.

بعد موت «عمرو بن الجن» انفصل «أولاد عمار» عن بقية قبيلة «الرماح» الذين استقروا في (الفيوم)، وفضل «أولاد عمار» حراسة قبر (عمرو) ومتعلقاته الشخصية حتى تتحقق نبوءة أخبرهم هو بها، أن الفارس الأسود سيأتي ثانيةً في يوم من الأيام ليأخذه لعالم الجن، حتى بعد موته، وأن عليهم حمايته حتى يأتي وقت عودة الفارس.

بعدما تولي «محمد علي باشا» مقاليد الحكم في القاهرة حاول التعامل مع العربان لكنهم رفضوا الانصياع له ولأوامره، فحدثت العديد من المناوشات على مدار سنوات طويلة انتهت بأن أصدر «محمد علي» قانون (امتياز العربان)، يعطي القبائل أراضي خصبة معفاة من الضرائب ومعافاة من التجنيد مدى الحياة مقابل

استقرارهم للزراعة، كما أعطاهم ألقابًا ميدانية منها لقب (الفارس) الذي استمر حتى وقت قريب قبل ثورة 23 يوليو، وكانت «أم حليجة» هي همزة الوصل بين الباشا في القلعة وقبائل «الرماح» بكل بطونها، وكنوع من التقدير من قبائل «الرماح» تم إهداؤها هدية غالية من طرف «أولاد عمار»، إحدى متعلقات «عمرو بن الجن» التي أخذوها من ضريحه، وهي سبائك عليها خدمة من الجان والعفاريت تنير قصرها في الليل.. وقد استحقت «أم حليجة» هذه الهدية بعد كل السنوات التي قضت هي فيها دور الحامي والمدافع عن العربان أمام الباشا.

وللأسف أتت الرياح بما لا تشتهي السفن، فبعد موت «محمد علي» وتولي «عباس حلمي الأول» تم التعامل بشدة غير مبرّرة مع العربان، حتى جاء «محمد سعيد باشا» الذي قرر إلغاء قانون (امتياز العربان) وإجبارهم على التجنيد وتحصيل الضرائب منهم وإلغاء ألقابهم المدنية، كما ذبح منهم الكثير ليُخضعهم لسيطرته، لكن قبيلة «الرماح» تولت أمر مضايقته بعدما تخصصت في الإغارة على ممتلكاته بصعيد مصر، والدخول معه في شكل من أشكال المعارك الخاطفة التي تحدث أكبر تأثير بقواته وتنسحب سريعًا للصحراء.

جن جنون «سعيد باشا» وجرد حملة عسكرية ضخمة مقسمة على ثلاثة فِرَق أولهم يقودها «حسين باشا أبو صباع» والفرقة الثانية يقودها «إسماعيل باشا» والثالثة يقودها «سعيد باشا»

بنفسه وبجانب تلك الفِرَق ضم جيش صغير من قبائل «أولاد علي» التي خضعت له.

أعدت قبيلة «الرماح» جيشها هي الأخرى وأرسلت في طلب «أولاد عمار» ليأتوا بعدتهم وعتادهم وخاصة بأدوات «عمرو بن الجن» التي يحرسونها.

التقى الجيشان بجنوب الفيوم وكانت الغلبة لجيش «سعيد باشا»، وبدأ فرسان «الرماح» بالتساقط وارتفعت صرخات نسائهم بمؤخرة الجيش.. حتى قرر شيخ قبيلة «أولاد عمار» بالتدخل، ركب حصانه وأخذ معه أحد متعلقات «عمرو بن الجن»، ثم التف بفرسه حول فرقة «سعيد باشا» وألقى ما معه وسط جيشهم.. صرخ جنود «سعيد باشا» وهم يسقطون من على أحصنتهم والدماء تخرج من آذان بعضهم، يقال بأن الشيء الذي ألقي وسط الجنود كان صندوقًا يحمل بداخله آلاف المردة من الجن تسلطوا على الجيش وشتتوه.

ارتفعت زغاريد نساء «الرماح» وهم يرون فرسان القبيلة يقضون على من بقيَ من جيش «سعيد باشا» الذي هرب على قدميه بعدما سقط من على فرسه وجرى بعيدًا حتى وصل لقصر «أم حليجة» ليحتمي به.

قررت قبيلة «الرماح» مغادرة الفيوم والاتجاه للصحراء خوفًا من انتقام الوالي فيما بعد، بينما عاد «أولاد عمار» لموقعهم الأصلي بجوار قرية «القصر»، لكن «سعيد باشا» طلب من «أم حليجة»

أن تقنع العربان بالعودة ثانيةً للتفاوض معه، وأنه سيعيد إليهم امتيازاتهم مقابل استقرارهم في الفيوم وابتعادهم عن مهاجمته.

خرجت «أم حليجة» لشيوخ قبيلة «الرماح» الأربعين قبل أن يبتعدوا وأقنعَتْهم بالعودة لقصرها للتفاوض مع الوالي، قبلوا لثقتهم فيها، وعاد الشيوخ معها إلا شيخ «أولاد عمار» وشيخين آخرين شكا في نوايا الوالي.. بمجرد دخول شيوخ القبيلة قصر «أم حليجة» أغلقت أبواب القصر وظهر رجال «سعيد باشا» ليذبحوهم ثم يعلّقون جثثهم بالقرب من أرض المعركة، لا يعلم أحد هل كانت «أم حليجة» تعرف بتلك المكيدة أم إنها خدعت مثلهم، لكن بعد تلك الواقعة بعام أرسل شيخ قبيلة «أولاد عمار» عشرة فرسان في جنح الليل ليقتحموا قصر «أم حليجة» ويأخذوا الهدية التي أهدوها لها قديمًا، السبائك المسحورة ليعيدوها للضريح، لم تعترض هي وتركتهم يذهبون مع هديتهم في سلام وبلا عراك.

أمتعني حديث شيخ القبيلة، برغم من كمية الخوارق التي تلف تلك القصة إلا أنها تخلب الألباب خاصة لو سمعتها في الأجواء التي تحيط بي الآن.. عند نهاية كلمات الشيخ دخل علينا شاب في الثلاثينيات من عمره يرتدي ملابس قاهرية، حيّاه الجميع بمودة وشيخ القبيلة يعرفني عليه، إنه «رفاعي» الذي أخبرني «رامي» عنه، قالوا لي إنه سيرافقني الأيام القادمة للكتابة عن الضريح، وسيتولى هو مسئولية تنقلاتي في القبيلة الليلة وخارجها غدًا.

غادر «رامي» القبيلة مودعًا إياي بعدما عرّفني على «رفاعي» كثر، وعُدتُ أنا مع هذا الأخير لمنزل الضيافة بالقبيلة، عرفني بمكان الحمّام والمبيت وأخبرني أنه سيأخذني غدًا بعد الغروب إلى موقع قريب من الضريح.

شخصيته على النقيض من «رامي» فهو شابٌ هادئٌ لا يتحدث كثيرًا، قليل الابتسام والمجاملة، لكنه مؤدب، لهجته القاهرية تجعلني أميل إلى أنه درس في القاهرة لفترة لا بأس بها من حياته، وهذا ما لم أسأل عليه لأنني شعرت أنه لا يرغب بتبادل الكثير من الأحاديث معي.

هذا أهم ما حدث اليوم إلا إذا أردت أن أكتب لك ماذا أطعموني على الغداء والعشاء وكم مرة دخلت فيها الحمّام لأهضم طعامهم الدسم.. إلى اللقاء في الغد يا صديقي.

***

6 فبراير

اليوم استيقظت باكرًا عند الشروق، صليت الصبح وأنا أتذكر أن الأمس مر عليّ بدون صلاة إلا الفجر، يجب أن أتذكر مواعيد الصلاة بشكل أفضل من هذا.

جاءني الرجال في منزل الضيافة بصحبة «رفاعي» ومعهم أصناف مختلفة للإفطار، تناولنا الطعام وحبسنا بأكواب الشاي ثم حاولت أن أجرهم للحديث حول ضريح «عمرو بن الجن».. كانوا

يفلتـون مـن الحديـث في كل مـرة أفتحـه فيهـا، بشـكل عـام أعطـاني هـذا انطباعًـا أن رجـال القريـة إمـا غـير مقتنعـين بكرامـات «عمـرو بـن الجـن» هـذا وإمـا أنهـم يخافـون الحديـث عنـه، أو ربمـا هـو الاثنـان مختلطـان ببعضهـما.. بعـض الأحيـان أخـبر النـاس أنني لا أقتنـع بالجـان والعفاريـت وفي نفـس الوقـت أشـعر بالقلـق عنـد الحديـث عنهـم، ولا أكـذب إن قلـت إننـي مـا زلـت أتخيَّـلُ أن هنـاك جنيًّـا ينتظـرني في كُلّ مـكان مظلـم، هـذا الخليـط يُشـبِهُ إلى حـدٍّ كبـير الملحـد الـذي ينكـر وجـود اللـه وفي نفـس الوقـت لا يـترك مناسـبة إلا وحـاول إقنـاع مَـن حولـه بـأن اللـه ظـالم للبشـر، يتكلـم عـن اللـه بكـثرة تجعلـك تشـك هـل فعـلًا ينكـر وجـوده أم هـو واقـع في هـذا الخلـط، إنـكار الـشيء والخـوف منـه بنفـس الوقـت.

أخـذني «رفاعـي» للتمشـية داخـل القبيلـة قليـلًا حتـى قلـت لـه ونحـن نسـير:

- متعرفـش إيـه ممكـن يكـون السـبب إن المـكان هنـا مفيـش كهربـا بتشـتغل فيـه؟

- يمكن يكون غضب من ربنا..

قالهـا باقتضـاب وسرعـة وهـو يخـرج علبـة سـجائر، أعطـاني سـيجارة فالتقطهـا مذهـولًا، حـاول أن يُشـعلها لي بقداحتـه فرفضـت وأفهمتـه أننـي تركـت التدخـين لكـن سـأحتفظ بتلـك السـيجارة ولا أشـعلها، أشـعرني ملمسـها بالراحـة وهـي بـين أصابعـي ترقـد في سـلام.

- إنت شغال إيه يا «رفاعي»؟

- عندي محلات بقالة في «القصر».

- واتخرجت من كلية إيه؟

- درست في الأزهر زي كل جدودي، جدي يبقى شيخ القبيلة اللي كنت قاعد معاه إمبارح.

- هو انت هاتمسك القبيلة من بعديه بعد عمر طويل إن شاء الله؟

- الله أعلم.. حتى لو مسكتها هاعمل إيه؟

- انتوا ليه ما اندمجتوش مع القرى اللي في الواحات؟

- اسأل ضريح «عمرو بن الجن»، هو اللي مكلبش أصول عوايلنا.

- إنت مصدق في الضريح ده؟

- ممكن مكنش متأكد من الضريح، لكن متأكد إنك مش جاي علشان بتكتب كتاب عن الأضرحة، توقيت زيارتك بيقول إنك عارف أكتر ما بتقول

- تقصد إيه؟

- انت عندك فضول تحضر الليلة اللي بتحصل كل عشر سنين، وأنا عندي فضول أعرف انت هاتعمل إيه.

«رفاعي» هذا خالف توقعاتي عنه، لم أتخيل أنه يقرأ ما يستتر بنفسي بهذه الطريقة، بل وما زال باردًا كأن شيئًا لم يكن، قلت له بخبث:

- إنت عمرك حضرت الليلة دي، ليلة ما القبر بيتفتح؟

- وأنا صغير بس، شُفتها من بعيد وخوفت أكمل فهربت

- شُفت إيه؟

- صدّق أو متصدقش، «عمرو بن الجن» حقيقي، لكن مش زي ما قبيلتنا فاكراه، يمكن يكون فعلًا اتربى مع الجن، ويمكن هو نفسه جني، مش عارف، لكن اللي شُفته ملوش معنى غير إننا أسرى لسر مش عارفينه حتى.

- طب والأدوات اللي سابها؟ موجودة؟

- جدنا الكبير دفنها في القبر علشان متقعش في إيد حد، العمامة بتاعته اللي لو لبستها تشوف عالم الجن، وعصايته اللي بتفلق الحجر وعبايته اللي بتخفي اللي يلبسها

خطرت لي فكرة كوميدية عن تلك العباءة، كدت أن أقول له إنه يتكلم عن (هاري بوتر) بنسخة معربة لكن تراجعت كي لا أكسب حنقه.

- الكلام اللي بتقوله يشبه التراث الصوفي، مش يمكن (عمرو) ده راجل جه من بلد بعيدة وعاش بينكم ومات بطريقة عادية؟

- يمكن.. بس للأسف تاريخيًا «أم حليجة» حقيقية والمعركة بين «الرماح» و(سعيد باشا) اللي حكهالك جدي بتفاصيلها مكتوبة في كتب التاريخ، يعني فيه سر بس إيه هو الله أعلم.

عدنا صامتين لمنزل الضيافة وتركني هو لتفكيري، قبل دخولي القبيلة كنت متعادلًا فيما سأراه، أما الآن فبدأت أشعر بهيبة ما حول الضريح، أخاف أن يخذلني عقلي ويصور لي تخيلات ليست من الواقع.

تذكرت الكاميرا الفوتوغرافية فأخرجتها من الحقيبة لأجربها، أوصلت كابل الفلاش الضخم ووضعت المصباح الصغير به، جلست أتأمل ذلك الغلاف الذي صنعه ابن خالتك للفلاش، وفكرت في نوع المادة التي استخدمها لتغليف أسلاك الفلاش وموضع البطارية.

حركت ذراع الكاميرا ووجهتها ناحية أحد أركان المنزل وضغطت على زر التصوير في نفس لحظة ضغطي زر الفلاش، قفزت فزعًا عندما انفجر المصباح وانفجر الضوء لثانية، طريقة تصوير مخيفة لو كانت تلك هي الشائعة في بداية القرن السابق، لقد تناثرت أجزاء المصباح المنفجر على الأرض، فككت بقايا المصباح القديم وركبت واحدًا جديدًا لكن لم أغير البطارية، حاولت إشعال المصباح ثانية لكن لم يحدث شيء!!!

قبل كل شيء نجح ابن خالتك في تشغيل أول كهرباء في هذا المكان، وفي نفس الوقت لا أفهم كيف عملت البطارية في المرة الأولى وفشلت المرة الثانية.. غيّرت البطارية بواحدة جديدة فانفجر المصباح بنجاح.

كيف فكرت في تلك الفكرة المريبة وكيف علمت أنها ستنجح،

على كل لن أستخدم الفلاش إلا ليلًا لذلك لن أرهق بالي بآلية عمله فربما علمت فيما بعد.

مرّ اليوم سريعًا وخاصةً بعد الغداء والذي لم يتحمله قولوني المسكين، حمدًا لله أنني أتيت بأدويتي، والتي لم تفعل لي الكثير، لكن «رفاعي» أحضر لي كوبا ضخمًا من اللبن الرايب ونصحَني بشربه، فعلًا اختفت مشاكل معدتي بعد قليل، أهو تأثير نفسي؟ أم إن للبن الرايب فوائد حقيقية؟ لا أعلم، الذي أعلمه أن الحياة في هذا المكان تجبرك على راحة البال. ويعز عليَّ تركه اليوم للذهاب للضريح.

قبل غروب الشمس أعددت حقائبي حتى أتاني «رفاعي» يحمل هو الآخر حقيبة كبيرة يبدو أنها ممتلئة على آخرها، تحركنا خارج القبيلة ناحية الشرق مشيًا على الأقدام.. سألته لماذا لا نستقل الأحصنة حتى ولو حملت هي الأمتعة عنا فقط.

- مفيش حيوانات بترضى تقرب من الضريح، بيتجننوا ويهيجوا ويهربوا، مش هانقدر نسيطر على الحصان لو أخدناه معانا.

كلامه أقلقني هذه المرة، لم أرَ الحيوان وهو يرفض الاقتراب من الضريح لكن كلماته الواثقة قطعت الشك باليقين في هذا الموضوع، كأنني شاهدت الحدث بأم عيني.

سرنا مسافة طويلة حددها هو بنصف ساعة من خلال ساعة يده التي اكتشفت أنها من النوع الذي يتم ملأه يدويًا كل اثنتي

عشرة ساعة لذلك لا تحتاج لأيِّ نوعٍ من البطارية.. هؤلاء القوم تعوَّدوا على الابتعاد عن الكهرباء بحق.

ظهرت قبة على مرمى البصر كأنها نحتت من الصخر، لم أتبين معالمها جيدًا لأن الظلام بدأ يهبط على المكان و(رفاعي) يأمرني بالتوقف ليصبح هذا هو موضعنا.

ألقيت بحقائبي وجلست فوقها وأنا أراقبُ «رفاعي» يفتح حقيبته ويخرج منها بضعة أسياخ معدنية لحمها ببعضها البعض فأصبحت أطول مما كانت عليه، ثم أخرج خيمة حديثة مطوية كالتي أراها في الأفلام الأجنبية عندما يخيمون في انتظار الوحش الذي سيأكلهم عند نهاية الفيلم.. غرسَ الأسياخ الحديدية في الأرض ووضع عليها الخيمة باحترافية من مارس هذا العمل آلاف المرات.

كما أخرج من الحقيبة بطانية فرشها على أرض الخيمة وأخرى لنتغطى بها.. لم تنتهِ حقيبته من المفاجآت، فهناك مصباحَا كيروسين أشعل أحدهما بقداحة لتنير لنا في الظلام وعدة أدوات لإعداد الشاي وبضعة علب تمتلئ بالطعام.

- مش هنروح نشوف الضريح بقى؟

قلت تلك الكلمات بملل بعدما انتهى هو من إعداد كل شيء، لكنه قال بدون أن ينظر لي:

- إنت في حمايتي، مفيش زيارات للضريح بالليل، الصباح رباح تروح وتقلب فيه براحتك

- ليه بس، هو انت مش عندك فضول تشوف إيه اللي بيحصل هناك؟

- أنا قلتلك عندي فضول أشوفك انت هاتعمل إيه، على العموم من بالليل للصبح مش كتير، اقعد اشرب الشاي دلوقت.

كان قد بدأ في إعداد الشاي بينما أنا أخرج التلسكوب من الحقيبة وأثبته على الحامل الخاص به، للأسف كل ما أعرفه عن هذا الشيء هو أساسيات علّمتها انت لي يا «حسين» كتركيبه واستخدام بعض عدسات التقريب، هل أعطيتني إياه لأستطيع تقريب صورة الضريح وأنا أراقبه من بعيد؟؟

لا أعرف ما هو غرضك لكني على الأقل استخدمت التلسكوب لهذا الغرض، وجهت التلسكوب ناحية الضريح، بالفعل أرى صورة مقربة جدًا له لكنها صورة مظلمة.

- انت بتعمل إيه؟ التلسكوب علشان تشوف بيه النجوم.

قال «رفاعي» جملته وهو يصب الشاي ويأتي ليقف بجانبي ليعطيني الكوب الساخن ثم يُزيحني برفق ليقف هو خلف التلسكوب ويرفعه لأعلى قليلًا قائلًا:

- النجوم والكواكب في الصحرا بتبقى أوضح لأن مفيش أي أضواء قريبة تأثر على الرؤية.

- إنت بتعرف تستخدمه؟

- على خفيف.. تعالى بص.

تركني لأنظر بعيني للقمر المتمثل في شكل بدر وحوله ضوء أزرق باهت يبدو لي أنه من أثر التلسكوب، أول مرة أرى القمر بهذا الوضوح والدقة، نسيت كل شيء عن الضريح وأنا أتبادل على التلسكوب مع «رفاعي» ننقل عدسته في أماكن عشوائية في السماء نحاول تبيُّن النجوم وأماكنها.

شربنا الكثير من أكواب الشاي وتناولنا العشاء ونحن مازلنا نراقب السماء بشغف ولا حديث لنا إلا عن النجوم والكواكب، بعد بضع ساعاتٍ أخبرني «رفاعي» بأنه سينام قليلًا داخل الخيمة.

- إلا عادي ننام كده في الصحرا.. مش ممكن عقرب يلدغنا.

قلت ذلك وأنا أغلق عدسة التلسكوب وأعيده للحقيبة فردَّ عليَّ وهو يدخل للخيمة:

- متخافش، لا تعبان ولا عقرب ولا سحلية بيقربوا من المنطقة دي، انت هاتنام في أمان أكتر من بيتكم نفسه.

دخل لينام بينما جلست أنا في خارج الخيمة بعدما أحضرت الأوراق لأكتب لك عما حدث اليوم، لكني لن أترك هذه الليلة لتمر مرور الكرام، سأنتظر حتى يذهب «رفاعي» في النوم وأحمل مصباح الكيروسين والكاميرا لأتفقد الضريح بنفسي، طالما لا وجود للحشرات والثعابين فلن يخيفني شيء، سأتوقف عن الكتابة الآن وأعود لأكمل لك ما رأيته.

***

اعذرني يا «حسين» وأنا أكتب تلك الكلمات، لقد عدت منذ قليل للخيمة وأنا أحاول من وقتها السيطرة على أعصابي، ستجد خطي مرتعشًا لكني سأحاول تنظيم أفكاري لتفهمني.

أخذت مصباح الكيروسين والكاميرا وسرت بحماسةٍ شديدةٍ ناحية القبة التي تظهر لي من بعيد، لم تكن بذلك البعد كما تخيلت فهناك تبة رملية بمجرد أن تخطيها وجدت نفسي أمام الضريح.

لا ليس ضريحًا كالأضرحة التي أعرفها، فهو كالمنزل في ارتفاعه تعلوه تلك القبة، كأنه منحوت من الصخر، لكن ربما كان مبنيًا في الأصل من الأحجار وعليه طبقة من الطين هي ما أعطته هذا الشكل الصخري، له أربع فتحات كالأبواب في جوانبه الأربعة، وبجوار الضريح بضعة جذوع نخيل يابسة ملقاة بإهمال وتكومات رملية تحيطُ بكل جوانب الضريح.

وضعت المصباح أرضًا وأعددت الكاميرا لأوّلِ التقطات، فجربت الفلاش وضغط زر التصوير فلم ينفجر المصباح!! غيرت البطارية ومصباح الفلاش لكن فشلت ثانيةً، أعدت الكرة مرات عديدة لكن لا استجابة من الفلاش، استخدمت الكاميرا بدون الفلاش معتمدًا على ضوء القمر التقط بضعة صور متمنيًا أن يظهر منها أي شيء وأنا أقترب أكثر مع كل مرة ألتقط صورةً جديدةً.

اقتربت حتى حدث شيء غريب.. من داخل الضريح ظهر ضوء أبيض للحظة واختفى، استعذت بالله من الشيطان الرجيم، عاد الضوء ثانيةً واختفى، جاءتني لحظة جراءة فاقتربت من الضريح

أكثر حتى لم يبقَ بيني وبينه إلا بضعة أمتار، عندها عاد الضوء لكن لفترة أطول، ومعه صوت أنين طويل، اهتزت الأرض تحت قدمي لوهلة وانطفأ الضوءُ واختفى معه صوت الأنين.

أطلقتُ ساقي للريح وأنا أحمل مصباح الكيروسين الذي خبَت ناره أثناء هروبي عائدًا للخيمة، استقبلني «رفاعي» واقفًا أمام الخيمة وهو يحمل المصباح الآخر مشتعلًا.

- شُفت إيه؟؟

قالها متحفزًا وأنا أجلس بجانب الخيمة ألتقط أنفاسي وأنا أنظر له فقال هو:

- أنا دخلت أنام علشان عارف إنك هاتروح لوحدك، قولي شُفت إيه؟

هل أخبره؟ بماذا أخبره؟ لم أفهم شيئًا مما رأيته، هل تخيلت ما حدث؟

- ما شُفتش أي حاجة

ظهرت علامات الشك على وجهه وهو ينظر لي وأنا أمسح حبات العرق التي تكونت على جبيني، لم يطل النظر لي لأنه ترك المصباح أمام الخيمة ودخلها لينام بهدوء.

ما حدث يفوق قدرتي على التصديق، يجب أن يشاهد أحدٌ ما معي هذا الشيء ليؤكد أو ينفي أنني كنت أتخيل، قلبي يصدق وعقلي يرفض، أتمنى أن أكون مخطئًا.

***

7 فبراير

نمت بالأمس بشكلٍ عميقٍ، أتصدقني؟؟ دخلت الخيمة بعدما أنهيت الكتابة وتخيلت أنني سأظل طوال الليل أفكر بعمق فيما حدث لكن فجأة شعرت بيد «رفاعي» توقظني وضوء النهار يدخل من خصاص الخيمة، تناولنا الإفطار بدون أن نتبادل أي كلمات وهو يشيح بوجهه عني ويتعامل معي ببرود، أنهينا الطعام وشربنا الشاي.. لكنني وجدته ينهض قائلًا:

- أنا هارجع على القبيلة علشان الحق.

- نعم.؟؟؟ ترجع إيه وتلحق إيه؟

- هو «رامي» مش قالك على الضيف التاني اللي هايجيي من مصر النهارده علشان يكون معاك؟ «رامي» هايوصله على القبيلة وأنا هاستلمه من هناك وأجيبه هنا.

- طب آجي معاك بقى طالما راجع.

- هو انت مش قلت إنك ما شُفتش حاجة في الضريح؟ خايف من إيه؟

شعرت بالإهانة وأنا أنظر بطرف عيني لقبة الضريح الظاهرة في الأفق وقلت:

- أنا مش خايف، بس برضو أنا معرفش حاجة في الصحرا علشان تسيبني كده في الطل.

- متقلقش، دي سكة نص ساعة رايح ونص ساعة جاي، هاستقبله وأجيبه على هنا على طول، كمان مش هانقعد نشيل الحاجات دي كلها ونروح ونرجع بيها مشي.

لو ألححت في طلبي سأشعر بالمهانة أكثر لذلك صمت محاولًا السيطرة على خوفي و «رفاعي» يرتدي حذاءه قائلًا:

- أنا هاسيبلك كل حاجة هنا، إوعى تفكر تسيب المكان أو ترجع القبيلة لوحدك، هاتتوه وممكن منعرفش نوصلك

هززت رأسي ولساني يكاد يخونني ليصرخ به أن يصطحبني معه، لكنه ألقى السلام علي وغادر ببساطة، خرجت خارج الخيمة أنظر له وهو يسير مبتعدًا حتى اختفى من مرمى بصري.

سأتوقف الآن عن الكتابة لأريح أعصابي وأعود لأكمل فيما بعد

***

فعلت كل شيء ممكن حتى إنني أكلت مرةً ثانيةً بدون رغبة حقيقية وشربت الكثير من أكواب الشاي حتى بدأت معدتي بالتقلص، كل هذا وأنا أنظر إلى قبة الضريح مفكرًا فيما سيحدث لو زرتها الآن في ضوء الشمس، لم أنفذ الفكرة بعد لكنني بدأت أشعر

بالملل الشديد، شمس الظهيرة بدأت في الابتعاد ولم يعد «رفاعي» بعد مع الضيف، بالتأكيد لن يتركوني وحيدًا.. ربما استقبل الضيف وهو الآن يقدم له أطايب الطعام احتفاءً به.. عليكم اللعنة جميعًا تأكلون وتتركوني هنا وحيدًا.. لو كنت أمامي الآن يا «حسين» لأخرجت لسانك من حلقك وخنقتك به.

***

لم يأتوا بعد، الوقت يمر ببطء، لذلك فقد ارتكبت مصيبة على سبيل الانتقام من الجميع، بحثت عن السيجارة التي أعطاني إياها «رفاعي» أمس، ليتني وجدتُها فقط وانتهى الأمر، لم أجدها بل وجدت علبة سجائر كاملة في حقيبة «رفاعي» وبجانبها قداحة أشعرتني بالأمان.

دخنت سيجارة، لا تَلُمني فأنتم جميعًا السبب.. في الحقيقة لم تكن سيجارة وحيدة، بدأت بسيجارة شربتها بحزنٍ وانتهت بعشرة سجائر دخنتهم مع أكواب الشاي وأنا ألعب في أصابع قدمي أمام الخيمة وأنظر لقبة الضريح.

أعطتني السجائر طاقةً جنونيّةً جلعتني أنهض والسيجارة المشتعلة تتدلى من طرف فمي علامة الاستهتار كي أكسِب نفسي ثقةً أكبر.. عبرت التبة الرملية ووقفت أمام الضريح، ماذا سيحدث إن دخلته؟ لا شيء..

اقتربت من فتحة الباب ودخلت الضريح.. لا شيء داخله، مجرد

مساحة خالية تمتلئ بالرمال !! أين الضريح؟؟؟ هل هذا مقلب أم ماذا؟ إذًا كيف رأيت الأضواء أمس؟ والصوت الذي سمعته؟

عدت ثانية للخيمة وجلست أمامها بعدما أطفأت السيجارة فلم تعد لي شهية لها.. سأنام الآن مرتاح البال حتى يعودوا، يبدو أنني خدعت.

***

أيقظني «رفاعي» من النوم ليلًا ليعرفني على الضيف الآتي من القاهرة، ما هذا يا «حسين»؟ الضيف ما هو إلا «محمد طه» ابن خالتك الذي قام بالتعديلات على الكاميرا، ولأننا نعرف بعضنا جيدًا فقد اندهش «رفاعي» من ذلك.

لماذا لم تقل أنك سترسله؟ ولِمَ تأخر عني كل هذا؟ على كل حال كل تلك الأسئلة سألتها له بشكل مباشر فأخبرني أنه تأخر بسبب بعض التعديلات التي كان يقوم بها على أجهزته، أنا أعرف أنه مهندس كهرباء لكن لم أفهم في البداية ما هي علاقته بضريح «عمرو بن الجن»، لكني ربط بعد تفكيري بثانية أن الكهرباء لا تعمل في هذه المنطقة، هل أرسلته ليصلحها؟؟ لا أعتقد أنه سيتعامل معها على أنها مصباح معطوب نحضر له سلمًا خشبيًا ليصعد ويصلحه، كيف سيصلح كهرباء في قبيلة كاملة.

جلسا يشربان الشاي وأنا بجانبهما أنظر إلى القبة بشرود حتى قال (رفاعي):

- إيه دخلت الضريح قبل ما أجي ولّا خفت؟

- دخلت.. وملقتش حاجة، الحكاية كلها الظاهر كانت مقلب كبير وانتوا شربتوه طول السنين اللي فاتت.

نطق «محمد» فجأة بانتصارٍ قائلًا:

- أنا كنت جاي هنا ومتأكد إن لا فيه عمرو ولا فيه جن، ابن خالتي كان بيستهبل في النقطة دي.

- وهو فيه نقطة ما استهبلش فيها؟

هز رأسه وجرى ناحية حقيبة كبيرة تركها بجانب الخيمة، الجميع يحضرون الحقائب الضخمة لهذا الضريح وكل شيء هذا كان بلا جدوى.

فتح «محمد» الحقيبة وأخرج منها صندوقًا رماديَّ اللون وعلى جانبيه ثلاث بكرات ملتصقات به، وبدأ في الحديث، وبدأت أنا بالذهول.

قال إنه توصل لفرضية بسبب عدم عمل الكهرباء في المكان، وبسبب هذه الفرضية قام بتغليف بعض أجزاء الكاميرا الفوتوغرافية التي أحملها بالرصاص، الفرضية كانت أن الكهرباء لا تعمل هنا بسبب وجود مجال كهرومغناطيسي عالٍ يؤثر على أي بطاريات أو أسلاك كهربية، لذلك إذا أحاط أي جهاز كهربي بغلاف من معدن الرصاص فسيمنع ذلك المجال الكهرومغناطيسي من التأثير على الأجهزة.

أما في حالة الكاميرا فلم يمكنه أن يحيطها بالكامل بالرصاص، فاضطرّ لإحاطة موضع البطارية والأسلاك التي تربطها بالفلاش بالرصاص، كي يمنع أي تداخل على البطارية، وبسبب أن مصباح الفلاش ينفجر كل مرة فذلك يظهر قطاع من الأسلاك يتأثر بالمجال الكهرومغناطيسي فيؤثر على البطارية الضعيفة ويحرقها، لذلك يجب تغييرها كل مرة لتعطي قدحة واحدة قبل أن تتأثر بالمجال.

عندما سألته لماذا فشلت في تفجير مصباح الفلاش وأنا قريب من الضريح اندهش وجلس متحفزًا وهو يقول:

- الرصاص اللي محاوط البطارية والسلوك لو قرب من مجال قوي هايتأثر لأني مكنتش مقفل الكاميرا كويس، وده معناه حاجة واحدة.. إن الضريح هو مصدر المجال الكهرومغناطيسي.

قال عبارته ونظر للصندوق الذي أخذه من حقيبته وهو يقول:

- إيه الشيء اللي في الضريح وبيخرج كل كمية المجال الكهرومغناطيسي ده اللي يأثر على مساحة بالكيلومتر.

- إيه الصندوق ده؟

- ده صندوق رصاص جواه راديو، وأنا موصّل بكرات الراديو بتروس علشان أدور البكرة اللي برا الصندوق فتدور البكرة بتاعت الراديو، وفيه فتحات دقيقة متوزعة على الصندوق ومتغطية بالدهب علشان تخرج صوت الراديو.

قال «رفاعي» بلهفة:

- يعني انت ممكن تشغل الراديو ده دلوقت؟

لم يـرد «محمـد» وإنمـا أدار البكـرات الجانبيـة للصنـدوق فسـمعنا تشويشًـا، نهـض «رفاعـي» مذهـولًا والتأثـر باديًـا عـلى وجهـه، بينـما يحـرك «محمـد» البكـرة حتـى حصلنا عـلى صوت واضـح، صـوت دقـات سريعـة منتظمـة بإيقاعـات محـددة تتكـرر بإنتظام كأنها تعنـي شيء.. كأنهـا رسـالة مسـجلة..

ظهر ضوء أبيض من قبة الضريح واختفى..

- أنتوا شُفتوا اللي أنا شُفته؟

قلـت عبـارتي بـتردُّدٍ وهـما يهـزان رأسـيهما بالإيجـاب والقلـق يقفـز مـن ملامـح كل منهـما عـلى حِـدة، أمـا أنـا فارتحـت قليـلًا عـلى الأقـل لأنني تأكـدت أنني لم أكـن أهـذي.

عـاد الضـوء بسرعـة خاطفـة فنهضنـا جميعًـا ننظـر بإتجـاه القبـة، وصـوت الدقـات المنتظمـة الأتي مـن الراديـو يصنـع خلفيـة مهيبـة للمشـهد، جـرى (محمـد) وحمـل حافظـة جلديـة صغـيرة مـن حقيبتـه وهـو يقـول:

- إحنا لازم نتأكد بنـ...

لم يكمـل عبارتـه لأن صـوت أنـين عـالٍ أتى مـن الضريـح مـع إضـاءة قويـة واهتـزاز أرضي أوقعنـا أرضًـا.

مـا الـذي يحـدث؟ أعتقـد يـا «حسـين» أنـك ترجمـت الموعـد الـذي يـأتي كل عـشر سـنوات بالخطـأ، ليـس في يـوم 8 فبرايـر، وإنمـا في ليلـة

هـذا اليـوم، أي التـي تسـبقها بليلـة، الأحـداث الغريبـة تتـم الآن مـع الضريـح.

الأرض تهتـز أكـثر والضـوء يعلـو والأنـين يتصاعـد، بصعوبـة خطـا «محمـد» ناحيـة التبـة الرمليـة وعبرهـا ونحـن وراءه نحـاول منعـه، وقـع أرضًـا جـرَّاء تلـك الهـزات، سـاعدناه عـلى النهـوض.

فجـأة توقـف كل شيء، كأن وحشًـا مـا حـاول يسـتيقظ مـن سـباته العميـق لكـن النـوم غلبـه فجـأة.

وقـف «محمـد» ينظـر لأرض بجانـب الضريـح، كان يتأملهـا بتركيـز وهـو يقـترب منهـا حتـى توقـف عند كتلـة ترابيـة وألقـى عندهـا حقيبته الجلديـة وأخـذ يحفـر بيـده أكـوام الرمـال، لم يحفـر كثـيرًا حتـى ظهـر شيء لامـع، جريـت مـع «رفاعـي» نتأكـد مـن مـما نـراه، إنـه ذهـب!!، أخذنـا نحفـر مثـل «محمـد» حتـى ظهـرت ماسـورة بقطـر ضخـم للغايـة كلهـا مـن الذهـب الخالـص، جـرى «محمـد» يحفـر في أماكـن مختلفـة ويزيـح الرمـال عـن بقيـة الماسـورة لنجـد بعـد دقائـق مـن الحفـر أن الماسـورة الذهبيـة تشـكل متـوازي أضـلاع ضخـمًا عـلى مسـافة ثلاثـين مـترًا، أكملنـا حفـر في أماكـن أخـرى لنجـد متـوازي أضـلاع آخـر يلتحـم مـع المتـوازي الأول عـلى أرضيـة مـن الفضـة.

وقف «محمد» لاهثًا متسع العينين رعبًا وهو يقول:

- دي «أنتينا»، هوائي لاسلكي بيستقبل الإشارات ويبعتها.

- والدهب لازمته إيه؟ والفضة ليه؟

- علشان الدهب أقوى موصل للكهربا، والفضة شغالة عاكس علشان يقدر يبعت إشارات لأماكن بعيدة، مين اللي عمل حاجة بالضخامة دي؟

- وعمله ليه؟

فجأة تشقق الضريح وانفصل لقطعتين ابتعدا عن بعضهما ببطء والضوء الأبيض يخرج من الأرض، انفتحت الأرض أسفل الضريح لتظهر فتحة تشبه البئر.. اهتزت الأرض ثانية و «محمد» يخرج من الحقيبة الجلدية الملقاة أنبوب صغير عرفت فيما بعد أنه أنبوب «جايجر» لقياس الإشعاعات النووية، ولا يحتاج لكهرباء بل يمكن تسخينه بالنار ليبدأ في إصدار الأصوات عند مرور إشعاعات نووية من خلاله، وهذا ما فعله «محمد» عندما أخرج قداحة من جيبه وأشعلها في طرف الانبوب لنسمع جميعًا الصوت المميز لعداد «جايجر» معلنًا أننا نقف في مكان يمتلئ بالتفريغ النووي.

هبط «محمد» من فتحة البئر و «رفاعي» يتبعه وأنا أحاول التشجع لأنزل لأسفل، لم يكن الأسفل بعيدًا بل هو مسافة مترين، وجدنا أنفسنا في آخر مكان كان يمكن أن نتخيله في يوم ما.

حاول التماسك يا «حسين» وأنا أروي لك هذا الجزء، وصدِّقني أنني لا أصدِّق نفسي.

نحن نقف في غرفة مضاءة باللون الأبيض، ممتلئة بأجهزة غريبة تحيط بنا من كل النواحي والأتربة تملأها، ما يمكن تمييزه منها هو ثلاث شاشات مسطحة تُشبه شاشات التلفزيون لكن صغيرة الحجم،

هناك أوراق ملقاة على الأرض، أمسكت إحدى الأوراق لأجدها تمتلئ بكتابات غريبة مطبوعة والحبر ممسوح في أكثر من سطر، كأنها مجموعة رسائل تمت طباعتها، ليس هذا كل شيء.

ففي نهاية الغرفة وجدنا طاولة يرقد عليها رجلٌ عارٍ غريب الوجه، يُشبِهُ البشر بشكلٍ كبيرٍ في تكوين الجسد والوجه عدا أن عينيه كبيرة وحاجبيه يبرزان للخارج، الأغرب من هذا أنه كان مغمضَ العينين كأنه نائمٌ على ظهره لكن هناك طبقة شمعية شفافة تغطي جسده بالكامل.

أخبرني «محمد» بأن أنبوب «جايجر» يخبرنا بأننا نقف على مصدر عالٍ لإنتاج الكهرباء، إنه اندماج نووي يكفي لإنتاج طاقة كهرومغناطيسية لتؤثر على كل الأجهزة الكهربائية في محيط أكثر من اثني عشر كيلو متر.

نظرنا لجسد الرجل ثم نظرنا لبعضنا البعض خائفين أن نعترف بما نراه الآن، هل هذا هو «عمرو بن الجن»؟ كائن فضائي في حالة سبات؟ وضريحه ما هو إلا كاموفلاج لشيءٍ يُشبه السفينة الفضائية!! هل الإشارة التي استقبلناها على الراديو منذ قليلٍ كانت تُرسلها تلك السفينة لخارج الفضاء كنوع من الاستغاثة منذ مئات السنين لذلك احتاجت لكل تلك الطاقة الكهرومغناطيسية التي أثرت على المنطقة المحيطة بها؟

بجانب الجثة هناك خوذة بيضاء مربَّعة الشكل وعصا طويلة

ورداء يشبه رداء رواد الفضاء، هل الخوذة هي العمامة ورداء الفضاء هو جلباب الولي؟ وسلاحه هي العصا السحرية؟

كان (محمد) يقف عند إحدى الشاشات ينظر لها بخوفٍ، مد يده ليزيح الأتربة من على الشاشة ليجد عليها صورةً بتصميمٍ ثلاثيّ الأبعاد لشيء يشبه فم الإبريق يدور حول نفسه ويضيء بألوان متعددة، قال «محمد» من وسط ذهول:

- أنا عندي ليكم خبر وحش، شكلي فهمت إيه اللي حصل، طول السنين اللي فاتت المركبة دي كانت بتحاول تبعت إشارة لبرا الأرض، لحاجة بتدور حوالين الغلاف الجوي للأرض، قمر صناعي محدش عارف مين أطلقه من 13 ألف سنة، اسمه (black knight) (الفارس الأسود) بيدور حوالين الأرض وبيبعت إشارات ليها بشكل منتظم، لكن واضح اننا لما شيلنا الرمل من على الأنتينا قدر (الفارس الأسود) يتواصل مع السفينة دي، وقدرت السفينة تبعتله رسالة استغاثة

ألم يقل شيخ القبيلة أن من أحضره هو فارس أسود وهو من سيعود ليأخذه ثانية؟؟

كما قلت لك صدق أو لا تصدق أنا الآن أكتب لك وأنا بجانب «محمد» و «رفاعي» المذهولين نجلس على تلك التبة الرملية و «رفاعي» يعد التلسكوب وينظر للسماء.. لحظة واحدة أنظر في عدسة التلسكوب وأعود لك.

لقد عدت، هناك جسم طائر رأيناه في التلسكوب يقف كالطائرة على ارتفاع شاهق عموديًا على ضريح «عمرو بن الجن».. ما الذي سيحدث؟ لا أعلم.. لكني سأظل مع «محمد» و «رفاعي» إلى أن نفهم ولو القليل.

أتركك الآن لأكمل معهم مراقبة ذلك الجسم الذي نشك بأنه «الفارس الأسود»..

مع السلامة يا صديقي

صديقك

عصام منلور

الواحات

7 فبراير/ 2024

تمت

***

شُكر خاص

إلى المهندس/ محمد طه الذي ضحى بالكثير من أجل ما يؤمن به، أتمنى أن تصل لمبتغاك.

إلى الصديق العزيز/ أ/ هيثم حسن مدير (دارك) للنشر والتوزيع، أشكرك على كل ما تحملته من أجل إخراج هذا العمل.


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

ضريح
عمرو بن الجن

إلى من دفن في هذا الضريح.. لكم أتمنى أن تكون مجرد خيال..

حسن الجندي



